د.ت. سوزوكي

التصوف البوذي والتحليل النفسي

ترجمة : ثائر ديب

تقديم : وفيق خنسة

دار العراب

د.ت. سوزوكي

التصوّف البوذي
والتحليل النفسي

ترجمة: ثائر ديب

تقديم: وفيق غنسه

● التصوف البوذي والتحليل النفسي
● د. ت. سوزوكي
● ترجمة: ثائر ديب
● تقديم: وفيق خنسة
● جميع الحقوق محفوظة للناشر©
● الطبعة الثانية 2007
● الناشر: دار الحوار للنشر والتوزيع
سورية - اللاذقية - ص. ب: 1018
هاتف وفاكس: 422339 41 963
البريد الإلكتروني: Soleman@scs-net.org

تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار
تصميم الغلاف: ناظم حمدان

إهداء الترجمة

إلى أبـــي...

أنت كما أنت، لا أكثر، ولا أقلّ.

ياللروعـــة!

الفهرس

الآخر: حوار الثقافات: وفيق خنسه 9

تصدير بقلم إريك فروم 17

شرق وغرب 23

اللاوعى في بوذية زن 43

مفهوم الذات في بوذية زن 73

الكوان 113

المراحل الخمس (غو- ئى) 143

الآخر: حوار الثقافات

دراسات في عقائد طائفة "زن" البوذية!

لا خـلاف في أنّ الأمـة العربيـة تواجـه أخطـر وأصـعب التحـديات الـتي يمكـن أن تواجههـا أمـة. ولـيس الإنسـان العربي وحده الذي يعاني من الضياع، والهبوط المتسارع نحو القاع؛ ذلك أن الإنسان في العالم كله يعاني من مسألة تحديد "الانتماء"، والعربي ـ فيما أرى ـ تتضاعف معاناته في البحث عـن "الهويـة". وعلـى هـذا الأسـاس يأخـذ الآخـر أشـكالاً مختلفة، فهو المقابل حيناً، والعدو حينـاً آخـر، هـو المرجـع والهيمنة معاً، وهو المثال والخراب على صعيد واحـد. ولقـد كان الغرب الأوروبي هو الآخر ـ الوحيد ـ بالنسـبة للمـثقفين العرب بصورة عامة، وما زال كذلك حتى الآن.

هناك أمثلة لا حصر لهـا عـن الاهتمـام "الفـاقع" بـالآخر الأوروبي، فالقـارئ العربـي يتـابع بحمـاس الثقافـة الغربيـة بكافة أشكالها ومستوياتها: بدءاً من مجلات الأزياء وانتهـاءً

بآخر اتجاهات المذاهب الفكرية. إن المراقب المحايد يستطيع أن يقرر ـ بصورة عامة ـ أن القارئ العربي يعرف تاريخ الثقافة الغربية أكثر مما يعرف تاريخ ثقافته، وذلك كله نتيجة منطقية لتفوّق الغرب وتخلّف العرب، فالمهزوم يقلّد المنتصر، والصغير يقلّد الكبير، والفقير يقلّد الغني! هذا قانون اجتماعي.

كيف نخرج من تبعيتنا الثقافية؟ وكيف نتحرر من عقدة الآخر الوحيد؟ بكلمات أخرى: كيف يمكن أن ننجز ثقافة ليست تابعة، وليست صدىً لآخر مهما كان ذلك الآخر عبقرياً؟

لا حاجة بنا لأن نفصّل في أن شعوب شرق آسيا بشرياً تشكل القسم الأعظم من البشر. وبدءاً من الهند ـ وخصوصاً الهند ـ نواجه ثقافة متميزة مستقلة عن ثقافة الغرب، مذكّرين على الفور بأننا لا نقول بجواهر ثابتة خالدة في التاريخ الاجتماعي، ومرّة ثانية لا حاجة لأن نعيد في التفاعل الثقافي، ووحدة الفكر البشري، ثم خصوصية تجربة كل شعب لأسباب تاريخية أرضيّة في المقام الأول.

ليست الشعوب الهندية أمة واحدة، ولكنها تعيش وتتعايش في مجتمع واحد هو مثال عالمي على الديمقراطية ـ مع تحفّظنا على أي حكم منجز ـ وفي الهند أكثر من ثلاثة ملايين طائفة في إطار الديانة الهندوسية. وإذا تحركنا قليلاً نحو الصين وجدنا ثقافة أخرى قائمة على الوحدة والتماثل.

خصوصيتان في الشرق تتميزان عن خصوصية الغرب في إطار حوار الثقافات.

ظهرت البوذية في الهند، وهاجرت إلى الصين، ومن هناك عبرت كوريا إلى اليابان. ولقد تلوّنت "تلك" البوذية بألوان ثقافات الشعوب التي اعتنقتها. ومن الطبيعي أن تنشأ طوائف واتجاهات في سياق التاريخ، ولكن تاريخ هذه الديانة لا يسجل لنا صراعات دموية تُذكر بين طوائفها. لقد حدثت بعض الصدمات الحادة في بعض دول الشرق الأقصى، ولكنها كانت عابرة ولم تؤثر على العلاقة الحميمة بين تلك الطوائف في إطار الديانة الواحدة. ومن هذا المبدأ تحديداً يقدم لنا الآخر ـ الشرقي ثقافة نتحاور معها، ونعيد فهم ذواتنا على ضوئها، وبالطبع كعامل من عوامل متعددة متنوعة. إن الحوار مع البوذية، ومع ثقافات الشعوب التي اعتنقتها رسمياً يمكن أن يفيدنا ويساعدنا في الوصول إلى تجاوز الصراع الدموي بين الطوائف الإسلامية.

طائفة "زن" هي الطائفة الصوفية الأهم والأكثر شهرة في ميدان التصوّف البوذي، وبالتالي فإنها تتقاطع ـ جوهرياً ـ مع التصوّف الإسلامي، والتصوّف العربي الإسلامي، وبالطبع مع التصوّف المسيحي والتصوّف المسيحي الغربي.

لا أريد هنا أن أفصّل في عقائد "زن" فمؤلف هذا الكتاب قد قام بالمهمة على أفضل وجه، ولكنني أريد التركيز على المغزى الأخير لأسئلة "الكوان". فمعلّم "زن" لا ينتظر من

المريد جواباً، لأن أي جواب على السؤال المطروح بلا معنى. إن الهدف الأخير للمعلم هو أن يوجه اهتمام المريد إلى ذاته، وتحديداً إلى حدسه الداخلي؛ أي إن البوذية تضع المعرفة الحدسية في المقام الأول دون أن تلغي المعرفة العقلية. إنّها تجربة قامت على أساسها نهضة اليابان الصناعية الجبارة، سواء أكانت تلك الأسس صائبة أم خاطئة؛ أي إنها أسس قابلة للحوار. وبكلمات أخرى إن "الآخر" في الشرق الأقصى "يبني" ثقافة على مبادئ تنزاح قليلاً أو كثيراً عن مبادئ "الآخر" الأوروبي. ومن هنا تأتي أهمية ترجمة النتاج الثقافي الشرقي إلى العربية، لا لنتبناه، ولا لنرفضه، لا لنقلده، ولا لنتسلى به، ولكن لكي نحاور التجارب جميعاً، ونستفيد من التجارب جميعاً.

تمت وحدة الشعب الياباني القومية عام 1603م، وترسّخ عصر الإقطاع مع إنجاز تلك الوحدة، ولقد تحققت الوحدة بقوة السلاح، وعبر معارك ضارية بين جيوش مختلف الأقاليم اليابانية. وكان اليابانيون جميعاً يعتنقون البوذية أو الشّنتوية، أو بالأدق يعتنقون الديانتين معاً. والمهم أنّ الوحدة اليابانية لم تكن في صراع مع أي من الديانتين، فبالعكس لاقت دعماً وتأييداً، وهذا لم يحدث في تاريخ الآخر الأوروبي. ونحن نرى المسافة الكبيرة التي تفصل حالياً بين القومية العربية واتجاهات التيارات الإسلامية المعاصرة، ذلك هو المستوى الثاني لحوارنا مع "آخر" الشرق الأقصى.

ليست صوفية "زن" يابانية، فلقد ظهرت في الصين أولاً، ولكن صوفية "زن" في اليابان ليست صينية، إنها صوفية البوذي الياباني تحديداً، فهل نستطيع الكلام عن صوفية عربية لا تتعارض مع الإسلام ولا تنحلُّ في التصوّف الإسلامي بالمعنى الواسع؟!

لا تبغي هذه المقدمة المتواضعة قول الكثير، ولكنها تهدف إلى لفت الانتباه إلى أنّ الآخر ليس أوروبا فقط، وإلى أن تجارب الآخرين كلها مهمة شريطة ألا تصبح عالة علينا، وألاّ نصبح عالة عليها.

إنّ هذا الكتاب الذي ساهمت في اقتراحه على الصديق المترجم يقدم وجهاً عميقاً من وجوه الثقافة في الشرق الأقصى. ولقد كان الدافع الأول لنقله إلى العربية هو المساهمة في الاقتراب من سؤال تحديد الهوية، وتحديد الانتماء. ونحن ندرك بوضوح أن أي جهد ـ مهما كان عظيماً ـ لا يفي وحده بالغاية، وأن أي جهد ـ مهما كان متواضعاً ـ جدير بالمتابعة والتقدير والاحترام.

اللاذقية ـ ربيع 1995

وفيق خنسه

تصدير : بقلم إريك فروم

هـذا الكتـاب هـو في الأصـل حلقـة دراسـية في بوذيـة زن والتحليـل النفسـي، أُقيمـت برعايـة قسـم التحليـل النفسـي التابع لكلية الطـب في جامعـة مكسـيكو الوطنيـة الحـرة، في أواخر الخمسينات. وقد شارك في هذه الحلقة حوالي خمسين طبيباً نفسانياً وعـالم نفـس مـن المكسـيك والولايـات المتحـدة (معظمهم من المحللـين النفسـانيين). وأُلقـي فيهـا عـدد مـن المحاضرات وتمّت مناقشتها. فإلى جانـب المقـالات الخمـس المنشـورة هنـا ومقالـة إريـك فـروم الـتي نُشـرت في unwin paperbacks وعنوانها: **التحليل الإنسـاني وبوذيـة زن**؛ ألقى السيد ر.دي. مارتينو محاضرة **بعنوان الوضع الإنساني وبوذية زن**؛ والـدكتور م.غـرين **جـذور مفهـوم الـذات عنـد سـوليفان**، والـدكتورج. كـيرش **دور المحلّـل في المعالجـة النفسـانية عنـد يونـغ**، والـدكتور. بروغـوف **الديناميـة السيكولوحية في زن** وأيضـاً **مفهـوم العُصـاب والشـفاء عنـد يونغ**، والآنسة سي. سيلفر **الإدراك الحسـي وقيـام الجسـد**

بوظائفه، والدكتور أستنكارد **الحثّ على المعالجة**، والدكتور إ. توبر **مفهوم الشفاء عند سوليفان**، والدكتور ب. ويسر **إسهام جورج. و. غرودّيك**.

إن أي عالم نفس معاصر، منذ الحرب العالمية الثانية فصاعداً، سيُدهش دهشة شديدةً ـ بل سيُصدم ـ إذ يجد زملاءاً له منكبّين على دراسة منظومة دينية "صوفية" مثل بوذية زن. وإنّه ليُدهش أكثر إذ يجد أن معظم الذين شاركوا في هذه الحلقة ليسوا "مهتمين" وحسب، بل ومعنيون بعمق بهذا الموضوع، وقد اكتشفوا أن الأسبوع الذي قضوه مع الدكتور سوزوكي وأفكاره قد ترك لديهم انطباعاً مؤثراً ومحفّزاً إلى أبعد جد، إن لم نقل أكثر من ذلك.

ولكي نوجز أسباب هذا التأثير باختصار، فإنها تتمثّل في تطور نظرية التحليل النفسي، والتغيرات الحاصلة في المناخ الفكري والروحي في العالم الغربي، وكذلك في أعمال الدكتور سوزوكي الذي عرّف العالم الغربي على بوذية زن من خلال كتبه، ومحاضراته، وشخصيته.

وما يميّز محاضرات الدكتور سوزوكي المنشورة هنا عن كتاباته الأخرى، هو أنها معنيّة بصورة خاصة ونوعية بمشاكل سيكولوجية مثل اللاوعي والذات، فضلاً عن أنها تخاطب جماعة صغيرة من المحللين النفسانيين، وعلماء النفس الذين اطلّع الدكتور سوزوكي على تساؤلاتهم واهتماماتهم من خلال المناقشات والأحاديث التي دارت في

الأسـبوع الكامـل الـذي قضـاه معهـم. وبالنتيجـة فـإن هـذه المحاضرات هـي ذات قيمـة خاصـة، كمـا أعتقـد، بالنسـبة للأطباء النفسانيين وعلماء النفس ولكثير من المثقفين المهـتمين بمشكلة الإنسان، ومع أن قراءتهـا "ليسـت سـهلة" إلا أنهـا تأخذ بيد القارئ لفهم بوذية زن إلى حدّ يمكنه من أن يكـون قادراً على المتابعة بنفسه.

إريك فروم

I- شرق وغرب

ثمة عدد كبير من المفكرين الغربيين الأكفّاء، الذين اهتموا، كلٌّ من وجهة نظره الخاصة، بموضوع "الشرق والغرب"، في حين أن قلّةً قليلة وحسب من كتّاب الشرق الأقصى هم الذين عبّروا عن وجهات نظرهم كشرقيين. وقد ساقتني هذه الواقعة لأن أختار هذا الموضوع كنوع من التوطئة لما سيأتي.

مرةً كتب باشو (1644 ـ 1694)، وهو شاعر ياباني عظيم من القرن السابع عشر، قصيدةً من سبعة عشر مقطعاً صوتياً تُعرف باسم هايكو[1] أو هوكو. وفي تصبح، حين تُنقل إلى العربية، كما يلي:

---

[1] الهايكو، نوع من الشعر الياباني يتألف من سبعة عشر مقطعاً منظمة في ثلاثة أقسام أو أبيات 5/7/5/. وغالباً ما تُلمس في الهايكو رغبة عارمة بالتماهي في الطبيعة دون أن يقتصر على هذه العلاقة. وماتسيو باشو هو واحد من أكبر شعراء الهايكو في جميع العصور الأدبية اليابانية إن لم يكن أكبرهم بامتياز ـ م ـ.

حين أُمعن النظر
أرى النازونا مُزهرَةً
على السياج، يا للروعة!
يوكو ميريبا
نازونا هانا ساكو
كاكيني كانا

ربما كان باشو سائراً في درب ريفي حين لاحظ شيئاً أخفاه السياج. وعندها اقترب، وأمعن فيه النظر، ووجد أنه ليس سوى نبتةً بريةً، لا أهمية لها ولا تلفت عموماً نظر السابلة. وهذه واقعة بسيطة يصفها الشاعر في قصيدته دون أن يعبّر أبداً عن أي إحساس شعري خاص إلا ما قد نجده في المقطعين الأخيرين، اللذين يُقرآن في اليابانية **كانا**. وهي كلمة غالباً ما تكون مرتبطة باسم أو صفة أو حال، وتدل على شعور معين بالإعجاب أو الإطراء أو الحزن أو البهجة، ويمكن أحياناً ترجمتها وعلى نحو ملائم تماماً إلى علامة تعجّب. وهي العلامة التي تنتهي بها كل قصائد الهايكو الحالية [2].

إن الشعور الساري عبر المقاطع السبعة عشرة، أو بالأحرى الخمسة عشرة مع علامة التعجّب في النهاية، قد لا

---

[2] بدلاً من علامة التعجب وضعت "ياللروعة" عند الترجمة إلى العربية اعتماداً على استعمالها في اللغة اليابانية ـ م ـ.

يكون قابلاً للإيصال إلى من لا يعرف اليابانية. وسأحاول ما بوسعي لكي أشرحه. ومع أن الشاعر نفسه قد لا يوافق على تأويلي، إلا أن هذا ليس مهماً كثيراً إذا ما علمنا أن ثمة أحداً ما على الأقل يفهم القصيدة كما أفهمها.

وقبل كل شيء، فإن باشو كان شاعر طبيعة، شأن معظم شعراء الشرق. فهم يحبّون الطبيعة حبّاً جمّاً بحيث يشعرون أنهم متّحدون بها، فيحسّون بكل نبضة تنبض في عروقها. أما الغربيون فمعظمهم ميّال إلى تغريب نفسه عن الطبيعة. وهم يعتقدون أن لا شيء مشترك بين الإنسان والطبيعة اللهم إلا في بعض الجوانب المرغوبة، وأن الطبيعة لا توجد إلا لكي ينتفع بها الإنسان. في حين أن الطبيعة قريبة جداً من الشرقيين. وهذا الإحساس بالطبيعة هو ما أُثير حين اكتشف باشو نباتاً مختبئاً، ومُهملاً. مُزهراً على السياج الخَرب القديم في الدرب الريفي البعيد، ببراءة شديدة. ودون ادّعاء، أو رغبة بأن يلاحظه أحد. ومع ذلك فإنه حين ينظر المرء إليه، يكون ممتلئاً رقّةً، ومفعماً بمجد وأُبهة أكثر تألقاً من مجد وأبّهة سليمان. وإن "تواضعه الشديد، وجماله غير المتفاخر، ليوقظ لدى المرء ذلك النوع الصادق من الإعجاب. وإنّ الشاعر ليمكنه أن يقرأ في كل بتلة السرّ الأعمق للحياة والكينونة. ولعل باشو لم يكن واعياً لهذا هو نفسه، لكنني واثق أن قلبه في ذلك الحين كان يرتعش بشعور قريب مما قد

يـدعوه المسـيحيون حبّـاً إلهيـاً، والـذي يبلـغ أغـوار الحيـاة الكونية.

قد تثير فينا سلاسل الهيمالايا شعوراً بالرهبـة السـامية؛ وقد توحي أمواج المحيط الأطلسـي باللانهايـة. ولكـن حـين يكون عقل المرء منفتحاً شعرياً أو صوفياً أو دينياً، فإنه يشعر كما شعر باشو بأنه حتى في كل ورقـة عشـب ثمـة شـيء مـا متعال حقاً على كل المشاعر الإنسانية الدنيئة الفاسـدة، وهـو يقود المرء إلى عالم يكافئ في أبّهته الأرض الطـاهرة[3]. ولـيس للشأن أو الحجم أهمية في مثـل هـذه الحـالات. ولقـد أبـدى الشاعر الياباني، في هذا الصـدد، موهبـة خاصـة تكشـف في أشياء صغيرة ما هو عظيم ومتعال على كل المقاييس الكمية.

هذا هو الشرق. فلنر الآن ما يقدمه الغرب في وضع مماثل. وإنـني أختـار لـذلك الشـاعر تينيسـون (1809 ـ 1892م). وعلى الرغم من أنه قد لا يكون شاعراً غربياً نموذجياً بحيث نختاره لمثل هذه المقارنة مع شاعر من الشرق الأقصى، إلا أن في قصيدته التي سأوردها شيئاً مرتبطاً صميمياً بقصيدة باشـو. يقول تينيسون:

---

[3] يقال إن بوذا إميتابا (أميدا في اليابانية)، أي بوذا صاحب النور اللا محدود، والحياة اللامتناهية، قد خلق بتعاطفه ورحمته التي لا حدّ لها أرضاً طاهرة يستطيع كل إنسان بلوغها بفضل رحمته ونعمته. فالتضرع البسيط لاسمه مقروناً بالإيمان بفاعليته يضمن للمؤمن الميلاد من جديد في الأرض الطاهرة ـ م ـ .

أيتها الزهرة على الجدار المتصدّع،
إنني أقتلعك من الشقوق؛
وأُمسك بك هاهنا، جذراً وكلاًّ، في يدي،
أيتها الزهرة الصغيرة ـ لو استطعت أن أفهم
ما أنت، جذراً وكلاًّ، وكلاً في كلٍّ،
لعرفت ما الله وما الإنسان.

ثمة نقطتان أودّ الإشارة إليهما في هذه الأبيات:

1- النقطة الأولى هي انتزاع تينيسون للزهرة ربما عن سابق قصد وتصميم وإمساكه بها في يده، "جذراً وكلاًّ"، والنظر إليها. والأرجح أن الشعور الذي كان لديه هو شعور قريب جداً من شعور باشو الذي اكتشف زهرة **نازونا** على سياج بجانب الطريق. أما الاختلاف بين الشاعرين فيتمثّل في أن باشو لا ينتزع الزهرة. بل يكتفي بالنظر إليها، ويستغرق في التفكير. ويشعر بأن ثمة شيئاً يجول في فكره، لكنه لا يعبّر عنه. ويترك لعلامة التعجّب أن تقول كل ما يرغب بقوله. ذلك أنه لا يملك كلمات كي ينطق بها؛ فشعوره فيّاض، وعميق، ولا رغبة لديه في أن يُمَفْهمه conceptualize.

إن تينيسون فاعل active وتحليلي. فهو أولاً يقتلع الزهرة من المكان الذي تنمو فيه. ويفصلها عن الأرض التي تنتمي إليها. وبصورة تختلف تماماً عن الشاعر الشرقي، لا يدع الزهرة وشأنها، فهو لابدّ أن يقتلعها من الجدار

المتصدّع، "جذراً وكلاً"، الأمر الذي يعني أن النبتة لابدّ أن تموت. وهو لا يهتم لمصيرها؛ أما فضوله فلابدّ أن يُشبَع. فيشرّح الزهرة، كما يفعل بعض علماء الطب. في حين أن باشو لا يمسّ النازونا ولو مسّاً. ويكتفي بالنظر إليها. و"بإمعان" ـ وهذا كل ما يفعله. فهو غير فاعل أبداً. وفي تعارض مع دينامية تينيسون.

وثمّة أمرٌ أود الإشارة إليه بشكل خاص هنا، وقد تسنح لي الفرصة ثانيةً للإشارة إليه. فالشرق صامت، أما الغرب ففصيح. لكن صمت الشرق لا يعني أنه أبكم أو فاقد للقدرة على الكلام. فالصمت في كثير من الأحيان فصيح كما الكلام. إنّ الغرب يحبّ اللفظية verbalism. وليس ذلك وحسب، بل إنه يحوّل الكلمة إلى جسد، وفي بعض الأحيان يُبرز هذه الجسدية في فنونه ودينه على نحو واضح جداً، وبالأحرى على نحو فاضح وشهواني.

2- ما الذي يفعله تينيسون بعد ذلك؟ إنه، وهو ينظر إلى الزهرة التي اقتلعها، والتي بدأت تذوي وتذبل على الأرجح، يطرح في داخله السؤال، "أيمكن أن أفهمك؟" أما باشو فليس فضولياً أبداً ولا يحب التحرّي. وهو يشعر أن كل السرّ قد تكشّف في النازونا المتواضعة ـ السرّ الذي يسري عميقاً إلى نبع الوجود كله. وهذا شعور يُسكره فيعبّر عن ذلك بصرخة لم تُنطَق، ولم تُسمَع.

وبخـلاف ذلـك، فـإن تينيسـون يمضـي في تفكـيره: "لـو (والتشديد من قبلي) استطعت أن أفهمك، لعرفـت مـا الله ومـا الإنسان". وهذا الاحتكام إلى الفهم هو غربـيّ علـى نحـو مميّـز. فباشو يقبل، أما تينيسون فيرفض. وفرديّة تينيسون تقف بعيـداً عن الزهرة، وعن "الله والإنسان". فهو لا يتماهى لا مع الله ولا مع الطبيعة. ويظلّ على الدوام مستقلاً عنهما. ويمكن أن نصـف فهمه كما يصفه الناس هذه الأيـام بأنـه "موضـوعي علمـي". في حين أن باشو "ذاتي" تماماً. (وهذه ليست بالكلمة الملائمة، لأن الذات تقف على الدوام مقابل الموضوع. و"الذات" الـتي أعنيهـا هنا هي ما أُحبّ أن أسميه "الذاتية المطلقـة"). وباشـو يقـف في صفّ هذه "الذاتية المطلقة" الـتي يـرى فيهـا النازونـا والنازونـا تراه. دون أن يكون هنا ثمّة تقمّص، أو تماثل، أو تماه.

يقول باشو: أُمعـنُ النظـر" (في اليابانيـة "يوكوميريبـا"). الأمر الذي يشـتمل علـى أن باشـو لم يعـد متفرجـاً هنـا وأن الزهرة قد أضحت واعيةً لذاتها ومعبّرة عـن ذاتهـا بصـمت، وفصاحة. وهذا الصمت الفصـيح، أو الفصـاحة الصـامتة مـن جانب الزهرة يتردد صداه على نحو إنساني في مقـاطع باشـو السبعة عشرة، ويبقى أن عمق الشعور هنا، وإبهام القول، أو "فلسفة الذاتية المطلقة"، تظلّ غير مفهومة إلا لأولئـك الـذين خبروا فعلياً كل ذلك.

لدى تينيسـون، وبقـدر مـا يسـعني أن أرى، لا يـأتي عمـق الشعور في المقام الأول؛ فتينيسون فكرٌ بأجمعه، ومطابق للذهنية

الغربية. وهو من أتباع مذهب اللوغوس. ولابدّ أن يقول شيئاً، لابدّ أن يجرّد تجربته الملموسة أو يُمَفهمَها. ولابدّ أن يخرج من ميدان الشعور إلى ميدان الفكر ويُخضع العيش والشعور لسلسلة من التحليلات لكي يرضي فضول الروح الغربية.

ولقد اخترت هذين الشاعرين، باشو وتينيسون، للدلالة على مقاربتين أساسيتين مميزتين للواقع، باشو من الشرق وتينيسون من الغرب. وحين نقارن بينهما نجد أن كلّ منهما ينمّ عن خلفيته التقليدية، وتبعاً لهذا، فإن العقل الغربي هو عقل تحليلي، تمييزي، تفريقي، استقرائي، فرداني، فكري، موضوعي، علمي، معمّم، مفهومي، تخطيطي، لا شخصي، تشريعي، منظم، مُستَخدِم للقوة، مؤكّدٌ للقوة، مؤكّدٌ للذات، ميّال إلى فرض مشيئته على الآخرين، إلخ.... وبخلاف هذه الخصائص الغربية فإن الشرق تركيبي، كلي، تكاملي، غير تمييزي، استنتاجي، غير منظّم، دوغمائي، حَدسي، (أو بالأحرى، وجداني)، لا منطقي، ذاتي، فرداني روحياً وذو عقلية جَمعيّة اجتماعياً[4]، إلخ.

---

[4] ـ يعتبر المسيحيون الكنيسة بمثابة الوسيط للخلاص لأن الكنيسة ترمز إلى المسيح الذي هو المخلّص. والمسيحيون مرتبطون بالله ليس على نحو فردي وإنما من خلال المسيح، والمسيح هو الكنيسة. والكنيسة هي المكان الذي يجتمعون فيه ليعبدوا الله ويصلّوا له ويتضرعوا عبر المسيح طالبين الخلاص. والمسيحيون في هذا الجانب ذوو عقلية جمعية في حين أنهم يعتنقون الفردانية اجتماعياً.

وإذا ما أردنا أن نختار رمـزاً شخصياً لخصـائص الشـرق والغرب هذه فإنني أختـار لاو ـ تسـي [5] (مـن القـرن الرابـع ق.م)، مفكـر الصـين العظـيم، كممثّـل للشـرق، ومـا يـدعوه بالعوام multitudes كممثّل للغرب. وحـين أقـول "العـوام" ليس في نيّتي أن أَسِمَ الغرب بأي معنى تحقيري يتعلّق بالدور الذي عزاه الفيلسوف العجوز للعوام اللاوتسيين.

إن لاو ـ تسي يصوّر نفسه شبيهاً بمعتـوه. ويبـدو كمـا لـو أنه لا يعرف شيئاً، ولا يتـأثر بشـيء. ويبـدو علـى الأخـصّ وكأنه لا نفع له في هذا العالم النفعـي. ويكـاد أن يكـون بـلا تعابير. ومع ذلك فإن فيه مـا يجعلـه مختلفـاً عـن الشـخص الجاهل المغفّل. فهو لا يشبه مثل هذا الشخص إلا خارجياً.

أما الغرب، وبخلاف ذلك، فله زوج من الأعين الحـادّة، النفّاذة، راسختين في محجريهما، تمسحان العالم الخـارجي كما تفعل عينا نسر محلّق عالياً في السماء. (والواقع أن النسر

---

[5] ـ من أعظم فلاسفة الصين، عاصر كونفوشيوس وأسس "التاوية"، أي السبيل أو المنهج أو الطريق. واسمه يعني حرفياً "المعلم العجوز". وتقول الروايات إنه ولد في دولة تشو، وعمل حافظاً للوثائق الملكية في العاصمة لوهيانغ. لكنه راح يتساءل عن قيمة الحكم والحكومة. وأفضى به ذلك إلى التخلي عن وظيفته واعتزال العالم. وسرعان ما تبين له أن البحث عن المعرفة باطل، لأنه يحرف الناس عن بساطتهم وطبيعتهم. كتب لاو ـ تسي كتاباً اسمه "تاو تي تشنغ"، أو "مقالة في التاو وسلطانه". وقد عبّر عن أفكاره بجمل قصيرة وملغّزة في كثير من الأحيان ـ م ـ .

هو الرمز القومي لسلطة غربية معينة). كما أن أنفه الشامخ، وشفتيه الرقيقتين، ومحيط وجهه عموماً - توحي جميعاً بحالة فكرية رفيعة واستعداد للفعل، ويمكن مقارنة هذا الاستعداد باستعداد الأسد. وبالفعل، فإن الأسد والنسر هما رمزا الغرب.

ولقد قدّم تشوانغ - تسي[6] من القرن الثالث ق.م. قصة الكونتون (هُن - تُن) أو العماء chaos. حيث كان أصدقاء العماء يدينون بالكثير من منجزاتهم إلى هذا الأخير وأرادوا أن يردّوا له الجميل، وتشاوروا معاً وتوصلوا إلى نتيجة معينة. فقد لاحظوا أن العماء لا يملك أعضاء للحسّ يميّز بها العالم الخارجي. وهكذا أعطوه العينين في يوم، والأنف في يوم آخر، وخلال أسبوع كانوا قد أتمّوا تحويله إلى شخص ذي حسّ مثلهم. وبينما هم يحتفلون بنجاحهم، مات العماء.

---

[6]- من كبار فلاسفة التاوية، بل يعتبر المؤسس الثاني لهذه المدرسة. وقد أثر تأثيراً كبيراً في تطور بوذية التأمل في الصين. وضع كتاباً يحمل اسمه ويجمع بين النوادر والحكم والأمثال والروايات وحوارات متخيّلة بينه وبين نقاده. وذهب تشوانغ - تسي إلى أن الإنسان يجب أن يعيش وفقاً للطبيعة تاركاً الأمور تجري كما هي، فهذا يمنحه الراحة والسعادة. وهذا يعني أن المعرفة هي التلقي المنفعل لتحولات التاو في الأشياء، والهدف الأخير للمعرفة والحياة هو السكون التام والاستغراق في الحقيقة الكلية التي هي التاو - م -.

إن الشـرق هـو العمـاء والغـرب هـو تلـك المجموعـة مـن الأصدقاء الشاكرين للجميل، وذوي النوايا الحسـنة، ولكـنهم دون حصافة.

ولا شك أن الشرق يبدو في مناح شتى أبكم وغبياً، ذلك أن الشرقيين لا يُظهرون الكثير من الحصافة والعقل البرهاني ولا الكثير من أمارات الذكاء الواضحة الملموسة. لكنهم يعلمون أن ذكاءهم الخاص، من غير هذا الطابع العماءي للـذكاء، قـد لا يكون ذا نفع كبير في العيش معاً بطريقة إنسـانية. فالأعضـاء الفرديون المنقسمون لا يمكنهم أن يعملوا معاً بانسجام وسـلام ما لم يكن اللامتناهي infinite ذاته مَرجعاً لهـم، ويشـكّل بصورة فعلية أساس كل عضو من الأعضاء المتنـاهين. والـذكاء ينتمي إلى الرأس وعمله بارز وينجز الكثير، أما العماء فيبقى صـامتاً وهادئـاً خلـف كـل الاضـطراب الظـاهري. وأهميتـه الحقيقية لا تظهر أبداً بحيث يدركها المساهمون.

إن الغرب ذا العقلية العلمية يستخدم ذكاءه لاخـتراع كـل أنواع الأدوات بهدف رفـع مسـتوى المعيشـة والـتخلّص ممـا يعتقد أنه عمل أو كدح غير ضروري. وهكذا يحاول جاهداً أن "يطور" الموارد التي يطالها. أما الشـرق، مـن جهـة أخـرى، فلا يهـتمّ لانهماكـه في العمـل الوضـيع واليـدوي مهمـا يكـن نوعه، ومن الواضح أنه راض بحالة حضارية "غير متطـورة". وهو لا يحب أن يكون ذا عقلية آليـة، وأن يحـوّل نفسـه إلى عبد للآلة. وربما يكون هذا الحب للعمل مميّزاً للشرق. وثمـة

قصة رواها تشوانغ ـ تسي عن أحد المزارعين هي قصة ذات دلالة رفيعة وتنضح بمعان عديدة، على الرغم من افتراض أن الحادث قد وقع في الصين منذ أكثر من ألفي عام.

وتشوانغ ـ تسي كان واحداً من أعظم الفلاسفة في الصين القديمة. ومن الواجب أن يحظى بمزيد من الدراسة قياساً بما يلقاه الآن. فالشعب الصيني ليس تأملياً مثل الشعب الهندي، وهو ميّال إلى تجاهل مفكريه. وفي الوقت الذي يحظى فيه تشوانغ ـ تسي بشهرة كبيرة بوصفه صاحب الأسلوب الأبرع بين رجال الأدب الصينين، فإن أفكاره لا تلقى ما تستحقه من اهتمام وتقدير. لقد كان جامعاً ومُدَوّناً ممتازاً للقصص التي ربما كانت شائعة في أيامه. ومن المحتمل أيضاً أن يكون قد ابتكر كثيراً من الحكايات لكي يوضح من خلالها نظرته إلى الحياة. وقصة هذا المزارع الذي رفض استخدام الشادوف [7] لرفع المياه من البئر توضح بصورة رائعة فلسفة تشوانغ ـ تسي فيما يتعلّق بالعمل.

حفر مزارع بئراً وراح يستخدم الماء لسقاية مزرعته. وكان يستعمل لسحب الماء من البئر دلواً عادياً، كما يفعل معظم البدائيين. وذات مرة رآه واحد من عابري السبيل، وسأله لماذا لا يستخدم الشادوف لهذا الغرض؛ فهو وسيلة توفّر الجهد وتنجز أكثر من الطريقة البدائية. فقال

---

[7] ـ الشادوف: أداة لرفع المياه تُستخدم لأغراض الري ـ م ـ.

المزارع، "أعلم أنها موفّرة للجهد ولهذا السبب بالذات لا أستخدمها. فما أخشاه هو أن يجعلني استخدام مثل هذه المخترعات ذا عقلية آلية. فالعقلية الآلية تسوق المرء إلى عادة الكسل والتراخي".

وغالباً ما يتساءل الغربيون لماذا لم يطوّر الصينيون مزيداً من العلوم والمخترعات الميكانيكية، ويقولون إن ذلك أمر غريب في الوقت الذي اشتهر فيه الصينيون باكتشافاتهم واختراعاتهم كالمغناطيس، والبارود، والعجلة، والورق، وغيرها.. غير أن السبب الأساسي لذلك هو أن الصينين وغيرهم من الشعوب الآسيوية يحبون الحياة كما تُعاش ولا يرغبون بتحويلها إلى وسيلة لإنجاز شيء آخر، الأمر الذي يحوّل مجرى العيش في قناة مغايرة تماماً، وهم يحبون العمل لذاته، على الرغم من أن العمل يعني إنجاز شيء ما. ولكنهم حين يعملون يتمتعون بالعمل ولا يتعجّلون إنهاءه. وإذا ما كان صحيحاً أن الوسائل الميكانيكية أكثر كفاءةً وإنجازاً، إلا أن الآلة متجردة عمّا هو شخصي وغير مبدعة ولا معنى لها.

والمكنة mechanization تعني التفكير، وبما أن الفكر نفعيّ بالدرجة الأولى فإن الآلة خالية من الأخلاقية الروحية أو الروحية الأخلاقية. وهنا يكمن السبب الذي يدفع مزارع تشوانغ ـ تسي لئلا يكون ذا عقلية آلية. فالآلة تتعجّل المرء لإنهاء العمل والتوصل إلى الهدف الذي بُذلَ العمل من أجله. ولا يكون للعمل أو الشغل بذاته قيمة تتعدّى كونه

وسيلة. أي إن الحياة تفقد هنا إبداعيتها وتتحول إلى أداة، ويصبح الإنسان وقتئذ آليةً منتجة للسلع goods producingmechanism. ويتحدث الفلاسفة عن أهمية الشخص؛ إلا أن الآلة في عصرنا المُصنّع والمكنن إلى حدّ بعيد هي كل شيء، ويكاد الإنسان أن يكون مُختَزَلاً إلى مجرد عبد. وهذا ما كان يخشاه تشوانغ ـ تسي، كما أعتقد. وبالطبع، فإننا لا نستطيع إعادة عجلة التصنيع إلى عصر الصناعة اليدوية البدائية. لكن من الخير لنا أن نكون متنبّهين لأهمية اليدين وكذلك للشرور الملازمة لمكننة الحياة الحديثة، والتي تبالغ كثيراً في تأكيدها على الفكر على حساب الحياة ككل.

لقد قلنا الكثير عن الشرق، فلنقل الآن بضع كلمات عن الغرب. إنّ دينيز دي روجيمون في كتابه "**بحث الإنسان الغربي**" يشير إلى "الشخص والآلة" بوصفها الخاصتين البارزتين المميزتين للثقافة الغربية. وهذه إشارة هامة، لأن الشخص والآلة مفهومان متناقضان والغرب يكافح بقوة من أجل التسوية بينهما. ولا أعلم إن كان الغربيون يفعلون ذلك بوعي أم بلا وعي. وسوف أشير وحسب إلى الطريقة التي تؤثر بها هاتان الفكرتان المتغايرتان على العقل الغربي في الوقت الراهن. وينبغي أن نلاحظ أن الآلة تتعارض مع فلسفة تشوانغ ـ تسي عن العمل أو الكَدح، كما أن الأفكار الغربية عن الحرية الفردية والمسؤولية الشخصية تعاكس الأفكار

الشرقية عن الحرية المطلقة. ولن أدخل في التفاصيل. لكنني سأحاول فقط أن أُلخّص التناقضات التي يواجهها الغرب حالياً وينوء تحت وطأتها:

1- ينطوي الشخص والآلة على تناقض، وهذا التناقض هو السبب في أن الغرب يعاني من توتر نفسي شديد يتجلى في مناح كثيرة من حياته الحديثة.

2- يتضمن الشخص الفرديّة، والمسؤولية الشخصية، أما الآلة فهي نتاج التفكير، والتجريد، والتعميم، والكليّة totalization، والعيش الجماعي.

3- موضوعياً أو فكرياً، أو إذا ما تكلمنا بطريقة عقلية آلية، فإن المسؤولية الشخصية لا معنى لها. فالمسؤولية مرتبطة منطقياً بالحرية، وفي المنطق ليس ثمة حرية، ذلك أن كل شيء محكوم بقواعد القياس syllogism الصارمة.

4- علاوة على ذلك، فإن الإنسان بوصفه نتاجاً بيولوجياً محكوم بقوانين بيولوجية. فالوراثة حقيقة واقعة وما من شخص يمكنه أن يبدّلها. وأنا لم أولد بإرادتي الحرة. وأهلي لم ينجبوني بإرادتهم الحرّة. والولادة المُخَطَّط لها لا معنى لها في الحقيقة.

5- الحرية هي فكرة فارغة أخرى. فأنا أعيش بصورة اجتماعية، في جماعة تقيّدني في كل تحركاتي، ذهنياً وجسدياً. وحتى حين أكون وحدي لا أكون حراً أبداً،. فلدي كل ضروب الدوافع التي ليست تحت سيطرتي على الدوام.

وبعض الدوافع تسوقني بعيداً رغماً عني. وطالما أننا نعيش في هذا العالم المحدود، فليس بمقدورنا أن نتحدث عن كوننا أحراراً نفعل ما نرغب به. فحتى هذه الرغبة هي شيء غير خاص بنا.

6- قد يتحدث الشخص عن الحرية، لكن الآلة تقيّده من جميع الجهات، والكلام لا يعدو كونه كلاماً. والشخص الغربي مقيّد ومكبوح ومكفوف منذ البداية. عفويته ليس عفويته على الإطلاق، وإنما هي عفوية الآلة. والآلة لا إبداع لديها؛ هي لا تعمل إلا بالقدر الذي يجعله الشيء الموضوع فيها ممكناً. وهي تسلك أبداً كما "الشخص".

7- لا يكون الشخص حراً إلا حين لا يكون شخصاً. فهو حرّ حين ينكر ذاته ويذوب في المجموع. وبصورة أدقّ، فإنه حرّ حين يكون ذاته ومع ذلك ليس ذاته. وما لم يفهم المرء هذا التناقض الواضح، فإنه لن يكون أهلاً للحديث عن الحرية أو المسؤولية أو العفوية. وعلى سبيل المثال، فإن العفوية التي يتحدث عنها الغربيون، وخاصةً بعض المحللين ـ النفسانيين، لا تعدو أن تكون عفوية طفولية أو حيوانية، وليست عفوية الشخص الناضج تمام النضج.

8- الآلة، السلوكية behaviorism، المنعكس الشرطي، الشيوعية، التلقيح الاصطناعي، الأتمتة عموماً، التشريح، القنبلة الهيدروجينية ـ جميعها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً مع

بعضها بعضاً، وتشكّل حلقات متينة متلاحمة في سلسلة منطقية.

9- يكافح الغرب لتربيع الدائرة. أما الشرق فيحاول أن يكافئ الدائرة بالمربع. وبالنسبة لـ "زن" الدائرة هي دائرة، المربع مربع، وفي الوقت ذاته المربع دائرة والدائرة مربع.

10- الحرية مصطلح ذاتي ولا يمكن تأويله موضوعياً. وحين نحاول، فإننا نقع في تناقضات لا سبيل إلى الخروج منها. ولذلك أقول إن الحديث عن الحرية في هذا العالم الموضوعي من الحدود المحيطة بنا هو حديث فارغ.

11- في الغرب "نعم" هي "نعم" و"لا" هي "لا"؛ ولا يمكن أبداً لـ "نعم" أن تكون "لا" أو العكس. أما الشرق فيجعل "نعم" تتحول إلى "لا" و"لا" إلى "نعم"؛ فليس ثمة انقسام حاد وثابت بين "نعم" و"لا". وإنه لمن طبيعة الحياة أن تكون كذلك. ولا يكون الانقسام راسخاً لا يَحُول إلا في المنطق وحده. والمنطق صنعه الإنسان كي يساعده في نشاطاته النفعية.

12- عندما يدرك الغرب هذه الواقعة، فإنه يخترع مفاهيم مثل تلك المعروفة في الفيزياء كالتتام complementarity ومبدأ عدم اليقين the principle of uncertainty كلما عجز عن تفسير ظواهر فيزيائية معينة. ومهما أفلح في خلق مفهوم إثر آخر، فإنه لا يستطيع أن يروغ من وقائع الوجود.

13- لا يهمنا الدين هنا، ولكن قد يكون مهماً أن نبيّن أن المسيحية، التي هي دين الغرب، تتحدث عن **اللوغوس والكلمة**، **والجسد**، **والتجسّد**، وعن الصفة الزمنية أو الدنيوية العاصفة. أما ديانات الشرق فتكافح من أجل اللاتجسّد، والصمت، والاستغراق، والسلام الأبدي. والتجسّد بالنسبة لـ "زن" هو لا تجسّد؛ والصمت يهدر مثل الرعد؛ **والكلمة هي لا ـ كلمة**، والجسد لا ـ جسد، والآن ـ هنا ـ تساوي الفراغ (**سونياتا**) واللانهاية.

II- اللاوعي في بوذية زن

ما أعنيه بـ "اللاوعي" قد يكون مختلفاً عمّا يعنيه به المحللون النفسانيون، ولذا فإنّ عليَّ أن أوضح وجهة نظري. وقبل كل شيء، كيف أقارب مسألة اللاوعي؟ إنّ "اللاوعي" الذي أعنيه هو "فوق ـ علمي" metascientific، إذا جاز التعبير، أو "قبل علمي" antescientific. وأنتم جميعاً علماء وأنا زنّي ومقاربتي "قبل علمية" ـ بل أخشى أن تكون "مناهضة للعلم" antiscientific في بعض الأحيان. وقد لا يكون التعبير "قبل علمي" تعبيراً ملائماً، لكن يبدو أنه يعبّر عمّا أقصده. أما التعبير "فوق علمي" فقد لا يكون سيئاً، سواء لأن موقف زن قد تطور بعد العلم أو لأن الفَكرَنة intellectualization قد شغلت لبعض الوقت كل ميادين الدراسة الإنسانية؛ فزن يقتضي أن نتوقف ونتأمل في ذواتنا ونرى إن كانت الأشياء على ما يرام قبل أن نستسلم دون قيد أو شرط لسيطرة العلم على كامل حقل النشاطات الإنسانية.

ويقضي المنهج العلمي في دراسة الواقع بأن نرى الموضوع مما يُدعى وجهة نظر موضوعية. ولنفترض، على سبيل المثال، أن الزهرة التي أمامي على الطاولة هي موضوع دراسة علمية. وعندها سوف يُخضعها العلماء لكل ضروب التحليل، النباتي، والكيميائي، والفيزيائي، إلخ.. ويقولون لنا إنهم قد استكشفوا الزهرة من الزوايا الخاصة بدراستهم، ويقولون إن دراسة الزهرة قد استُنْفِدَتْ وما من مزيد لقوله عنها ما لم يتمّ اكتشاف شيء جديد في سياق دراسات أخرى.

وهكذا فإن السمة الرئيسية التي تميّز المقاربة العلمية للواقع هي توصيف الموضوع، والكلام **عنه**، والدوران **حوله**، والتقاط كل ما يجذب فكرنا الحسّي sense - intellect وتجريده بعيداً عن الموضوع ذاته، وحين ننتهي من كل ذلك كما نفترض، تركيب هذه التجريدات المُصاغة تحليلياً والتوصّل إلى النتيجة بالنسبة لهذا الموضوع.

بيد أن السؤال يظلّ مطروحاً: "هل وقع الموضوع كاملاً في الشبكة حقاً؟" وأُجيب، "لا، بالتأكيد!" لأن الموضوع الذي نعتقد أننا قد أمسكنا به ليس سوى محصّلة تجريدات وليس الموضوع ذاته. ومن أجل مقاصد عملية ونفعية، فإنّ ما يُدعى بالصيغ العلمية تبدو أكثر من كافية. لكن الموضوع غير موجود. فبعد سحب الشبكة، نجد أن شيئاً ما قد فرّ من ثقوبها الصغيرة.

ويبقى أنّ هناك طريقة أخرى لمقاربة الواقع، تسبق العلوم أو تأتي بعدها. وإنني أدعو هذه الطريقة مقاربة زن.

1

ومقاربة زن هي أن تدخل في الموضوع ذاته وتراه، كما هو، من الداخل. فأن تعرف الزهرة يعني أن تصبح الزهرة، أن تكون الزهرة، وأن تتفتّح مثل الزهرة، وأن تبتهج لنور الشمس وهَطل المطر. وحين يتمّ ذلك فإن الزهرة تكلمني وأعرف كل أسرارها، وكل مباهجها، وكل آلامها؛ أي كل حياتها النابضة في داخلها. وليس ذلك وحسب: فإلى جانب "معرفتي" الزهرة أعرف كل أسرار الكون، الذي ينطوي على كل أسرار ذاتي الخاصة my own self، التي كانت إلى الآن قد تملّصت من ملاحقتي لها، ذلك أنني كنت قد قسمت نفسي إلى ثنائية duality، المُلاحق والمُلاحِق، الموضوع والظل، فلا عجب إذاً أنني لم أُفلح أبداً في التقاط ذاتي، وكم كانت هذه اللعبة مضنية!

بيد أنني الآن أعرف ذاتي بمعرفتي الزهرة. أي إنني بضياع ذاتي في الزهرة أعرف ذاتي فضلاً عن الزهرة.

وأنا أدعو هذا النوع من مقاربة الواقع طريقة زن، وهي الطريقة قبل العلمية أو فوق العلمية أو حتى ضدّ العلمية.

ويمكن أيضاً أن ندعو هذه الطريقة في معرفة الواقع أو رؤيته طريقة نزوعية[1] conative أو إبداعية. ففي حين تقتل الطريقة العلمية الموضوع وتقضي عليه محاولةً عن طريق تشريح الجسد ووضع الأجزاء معاً من جديد أن تعيد إنتاج الجسد الحي الأصلي، وهذا في الحقيقة أمر مستحيل، فإن طريقة زن تأخذ الحياة كما تُعاش بدلاً من أن تقطعها قطعاً وتحاول استعادتها للحياة عن طريقة التفكير، أو إلصاق القطع مع بعضها بعضاً بواسطة التجريد. إن طريقة زن تحافظ على الحياة كحياة؛ دون أن يمسّها مشرط الجراحة.

وها هو شاعر زن ينشد:

كل شيء متروك لجمالها الطبيعي،
بشرتها سليمة،
عظامها على حالها:
فلا حاجة للأصبغة، أو المساحيق من أي نوع.
إنها كما هي، لا أكثر، ولا أقل.
يا للروعة!

---

[1] الـ conation، أو النزوع، هو الاتجاه إلى الفعل. ويمكن فهمه على نحو أفضل بوضعه قرب أو قبالة الإدراك والوجدان، النزوع قريب جداً من فكرة الإرادة، بغض النظر عن التنفيذ أو عدمه ـ م ـ.

إن العلوم تُعنى بالتجريدات وليس ثمة فاعلية فيها. أما زن فيغوص إلى منبع الإبداع ويرتشف منه كل الحياة التي فيه. وهذا المنبع هو لا وعي زن. فالزهرة، مهما يكن الأمر، لا تعي ذاتها. وأنا من يوقظها من اللاوعي. وفي حين يفوت ذلك تينيسون حين يقتلع الزهرة من الجدار المتصدّع، فإن باشو يدركه حين ينظر إلى النازونا المتفتحة بحياء على السياج البرّي. ولا أستطيع أن أحدد بالضبط أين يكمن اللاوعي. هل هو فيَّ؟ أم في الزهرة؟ ولعله، حين أسأل: "أين؟"، ليس في أي مكان. وإذا ما كان الأمر كذلك، فلأكُن فيه ولا أقول شيئاً.

وفي الوقت الذي يَقتُلُ فيه العالِمُ، فإن الفنان يحاول أن يعيد الخلق، ذلك أن الفنان يعلم أن الواقع لا يمكن التوصل إليه عن طريق التشريح. ولذلك فهو يستخدم القماش والفرشاة والألوان ويحاول أن يخلق من لاوعيه. وحين يتماهى هذا اللا ـ وعي بصدق وأصالة مع اللاوعي الكوني cosmic unconseious، فإن إبداعات الفنان تكون أصيلة. ويكون قد أبدع شيئاً ما حقاً؛ وعمله ليس نسخة من أي شيء؛ وإنما هو قائم بذاته ونسيج وحده. فإذا كانت الزهرة التي يرسمها متفتحةً في لا ـ وعيه، فإنها تكون زهرة جديدة وليست محاكاةً للطبيعة.

لقد رغب رئيس الرهبان في أحد أديرة زن بأن يتم تزيين سقف قاعة الدهارما[2] Dharma Hall بتنين. وطلب من أحد الفنانين المشهورين أن يقوم بهذا العمل. وقَبلَ الفنان، ولكنه اشتكى من أنه لم يَرَ تنيناً حقيقياً، إن كان التنين موجوداً أصلاً. فقال له رئيس الرهبان، "لا تهتم لكونك لم تر التنين. ستصبح تنيناً، ستتحوّل إلى تنين حيّ، وترسمه. لا تحاول أن تتبّع النموذج المعروف".

وتساءل الفنان: "كيف يمكن لي أن أتحوّل إلى تنين؟" وردّ رئيس الرهبان،" سوف تعود إلى حجرتك وتركّز تفكيرك على هذا الأمر. وسيأتي وقت تشعر فيه أنّ عليك أن ترسم تنيناً. وتلك هي اللحظة التي تكون قد تحولت فيها إلى تنين، ويدفعك فيها التنين لأن تعطيه شكلاً".

اتّبع الفنان نصيحة رئيس الرهبان، وبعد مكابدات شاقّة طوال عدّة أشهر أصبح واثقاً من نفسه إذ رأى نفسه في التنين الخارج من لا وعيه. وكانت النتيجة هي ذلك التنين الذي نراه اليوم على سقف قاعة الدهارما في ميوشينجي، في كيوتو.

---

[2] الدهارما في البوذية هي "الحقيقة الكلية" أو الحقيقة الأزلية"، وهي التي أيقظت بوذا وكرّس نفسه لإعلانها للآخرين - م -.

وأريد، بالمناسبة، أن أشير إلى قصة أخرى عن لقاء تنين مع فنان صيني، وكان هذا الفنان قد رغب برسم تنين وراح يتوق لفرصة مناسبة، كونه لم يَر تنيناً حياً أبداً. وفي أحد الأيام أطلّ تنين حيّ من النافذة وقال: "ها أنا، ارسمني!". وشُده الرسام بهذا الزائر غير المتوقّع لدرجة أنه قد أُغمي عليه بدلاً من أن ينظر إليه بإمعان. وهكذا لم يرسم أبداً صورة تنين حيّ.

فالرؤية ليست كافية. ولابدّ للفنان من أن يدخل في الشيء ويشعر به من الداخل ويحيا حياته بنفسه، ويقال إنّ ثورو[3] قد كان عارفاً بالطبيعة أكثر من المختصّين بها. وكذلك كان غوته. ولم يكونا عارفين بالطبيعة إلا أنهما كانا قادرين على عيشها. أما العلماء فيتعاملون معها موضوعياً، أي بصورة سطحية. وقد تكون عبارة "أنا وأنت" عبارة حَسَنة، ولكننا لا نستطيع في الحقيقة أن نقول ذلك؛ لأننا حالما نقوله أكون

---

[3] ديفيد هنري ثورو (1817 ـ 1862) كاتب مقالات فلسفية وكاتب طبيعي، كان فقيراً في شبابه. ودرس في هارفارد وكان يعيل نفسه بمزاولة أي عمل يؤمن له حياة بسيطة دون أن يسيطر هذا العمل على حياته. راقب الطبيعة وتفاعل معها وتأمل أفكاره. أثّرت مقالته الشهيرة عن "العصيان المدني" التي طور فيها فكرة المقاومة السلبية على كل من تولستوي وغاندي ـ م ـ.

"أنا" "أنت" وتكون "أنت" "أنـا". فالاثنينيـة[4] DUALISM لا تستطيع أن تصمد إلا حين يسندها شيء ما غير اثنيني.

والعلم يزدهر على الاثنينية؛ ولذا يحـاول العلمـاء ردّ كـل شيء إلى قياسات كمّية. وهم يخترعون لهذا الغرض كل أنواع الأدوات الميكانيكية. والتكنولوجيـا هـي الفكـرة الأساسـية في الثقافـة الحديثـة. وكـل مـا لا يمكـن ردّه إلى قيـاس كمّـي يرفضونه بوصفه غـير علمـي، أو قبـل علمـي. وهـم يطلقـون مجموعة معينة من القواعد، ويضعون جانباً وبصـورة طبيعيـة كل الأشياء التي لا تخضع لهذه القواعد بوصفها لا تنتمي إلى حقل دراستهم. ومهمـا كانـت الشـباك ممتـازةً، فـإن بعـض الأشياء تفرُّ منها حتماً ما دامت شباكاً فلا يمكن لذلك قيـاس هذه بأية صورة من الصور. ومن المقسوم للكميات أن تكـون لا متناهية، وسيأتي يوم تعترف فيه العلوم بعجزهـا عـن إيقـاع الواقـع في حبائلـها. واللاوعـي هـو خـارج حقـل الدراسـة العلمية. ولذا فإن كل ما يمكن للعلماء أن يفعلوه هـو الإشـارة إلى وجود حقل كهذا. ويكفي العلم أن يفعل ذلك.

---

[4] الاثنينية: اتجاه فلسفي يسلّم بوجود مستقلين، الروح والجسد، الخير والشر، النور والظلام، المادي واللامادي... إلخ. ويُعد ديكارت واحداً من أشهر أصحاب هذا الاتجاه، فقد طرح قضية الثنائية وجعل منها واحدة من الاهتمامات المميزة للفكر في القرون الثلاثة الأخيرة، وهو يقول بوجود جوهر مادي صفته الأساسية الامتداد، وجوهر لا مادي صفته الأساسية التفكير. وهكذا يفصل ديكارت فصلاً مطلقاً بين فيزيائه وميتافيزيائه، على حد تعبير ماركس - م -.

اللاوعي هو شيء نشعر به، ليس بالمعنى العادي، بل بما أسميه المعنى الأشدّ مباشرةً وجوهريةً. ولعل هذا أن يكون بحاجة للشرح. فحين نقول، "أشعر بالطاولة الصلبة"، أو "أشعر بالقشعريرة"، فإنّ هذا النوع من الشعور ينتمي إلى مجال الأحاسيس، والتي يمكن تمييزها عن الحواس كالسمع و البصر. وحين نقول، "أشعر بالوحدة"، "أو أشعر بالسمو"، فإن هذا الشعور عامّ أكثر، وكليّ أكثر، وجوّاني أكثر، لكنه يظلّ منتمياً إلى ميدان الوعي النسبي. أما شعور اللاوعي فهو مقابل أساسي أكثر ومباشر أكثر ويشير إلى عصر "البراءة"، حين لم يكن الوعي قد استيقظ بعد مما أطلقوا عليه اسم الطبيعة الهيولية. بيد أن الطبيعة ليست هيولية، لأن كل ما هو هيولي لا يمكن أن يوجد بذاته أبداً. وهذا ليس سوى مفهوم يُطلق على المجال الذي يأبى أن يُقاس بقواعد الاستنتاج أو الاستدلال المنطقي العادية. والطبيعة هيولية بمعنى أنها خزّان إمكانات لا نهائية. والوعي المتطور من هذه الهيولى هو شيء سطحي، لا يمسّ سوى حافة الواقع. ووعينا ليس سوى جزء عائم لا أهمية له من جزيرة في الأُقيانوس [5]

---

[5] ـ أوقيانوس، هو التشخيص الإلهي للماء. وهو العنصر الأصلي الموجود قبل الكون والذي يحيط به بعد وجوده. وهو أب لآلاف الأنهار التي تحيي البشر وتخصب الأرض. وفي العصور المتأخرة أصبح يمثّل على هيئة شيخ ذي لحية خضراء ممسكاً بقرن يرمز إلى ما في الماء من قدرة وخصب وغذاء ـ م ـ.

المحيط بالأرض. ولكننا نستطيع من خلال هذا الجزء الصغير من الأرض أن نُطلّ على أمداء اللاوعي الشاسعة؛ هذا اللاوعي الذي لا يمكن لنا أن نحظى سوى بالشعور به، لكن هذا الشعور ليس بالشيء القليل، إذ يمكننا بواسطته أن ندرك أنّ لوجودنا المتشظي أهمية كاملة، وبذا يمكننا أن نثق بأننا لا نعيش عبثاً وبلا طائل. أما العلم، وبالتعريف، فلا يمكن أن يمنحنا إحساساً بالأمن الكامل والطمأنينة التي هي نتيجة لشعورنا باللاوعي.

وفي الوقت الذي لا ننتظر فيه أن نكون جميعاً علماء، فإن الطبيعة قد شكلتنا بحيث يمكن لنا جميعاً أن نكون فنانين - لا فنانين من نوع خاص، كالرسامين، أو النحاتين، أو الموسيقين، أو الشعراء، إلخ.. بل فنانو الحياة. وهذه المهنة، "فنان الحياة"، قد تبدو جديدة وغريبة تماماً، لكن الحقيقة هي أننا نولد فناني الحياة ومعظمنا يُخفقُ، دون علمه، في أن يكون كذلك. والنتيجة هي أننا نُفسد حياتنا، فنتساءل، "ما معنى الحياة؟" ألا نواجه عَدَماً مطلقاً؟" "بعد عيش ثمانية وسبعين عاماً، أو تسعين عاماً، أين نذهب؟ لا أحد يعلم"، إلخ. ويُقال إن معظم الرجال والنساء الآن عصابيون فيما يتعلق بهذه القضايا. لكن بمقدور الزنّي أن يقول لهم إنهم قد نسوا جنيعاً أنهم ولدوا فنانين، فناني الحياة المبدعين، وإنهم حالما يدركون هذه الحقيقة الواقعة سوف يبرؤون من

العُصاب أوالذهان أو غيره من الأسماء التي يطلقونها على مشكلتهم.

2

ما المقصود إذاً بأن يكون المرء فنان الحياة؟

بقدر ما نعلم، فإن جميع أصناف الفنانين لابد أن يستخدموا هذه الأداة أو تلك في تعبيرهم عن أنفسهم، وإظهار إبداعهم بصورة أو بأخرى. فعلى النحّات أن يحصل على حجر أو خشب أو صلصال أو إزميل أو غيره من الأدوات لينقش أفكاره على المادة. لكن فنان الحياة لا حاجة به لأن يخرج خارج ذاته. فكل المادة، وكل الأدوات، وكل المهارة التقنية المطلوبة موجودة معه منذ لحظة ولادته، بل وربما قبل أن ينجبه والداه. وقد تصرخون إن هذا غريب. وغير عادي. لكنني واثق من أنكم حين تفكرون فيه لبرهة ستدركون ما أعنيه. فإن لم تدركوا، فسوف أكون أكثر ووضوحاً وأقول لكم: إن الجسد، الجسد الفيزيقي الذي نملكه جميعاً، هو المادة، شأنه شأن قماش الرسام، وخشب النحّات أو حجره أو

صلصاله، وكمان الموسيقي أو نايه، والحبال الصوتية لدى المغنّي. وكل ما هو متصل بالجسد، كالأيدي، والأقدام، والجذع، والرأس، والأحشاء، والأعصاب، والخلايا، والأفكار، والمشاعر، والأحاسيس ـ وفي الحقيقة كل ما يساهم في تشكيل الشخصية بأكملها ـ هو في آن واحد كلٌ من المادة والأدوات التي يحوّل بها الشخص عبقريته الإبداعية إلى نتاج، وإلى سلوك، وإلى كل أشكال الفعل، وفي الحقيقة إلى حياة بالذات. وحياة مثل هذا الشخص تعكس كل صورة يبدعها من منبع لا وعيه الذي لا ينضب. وكل فعل من أفعال هذا الشخص يعبر عن أصالته، وإبداعه، وشخصيته الحيّة. فليس ثمة تقليديّة في هذه الشخصية، ولا امتثال، ولا دوافع مكفوفة. إنه يتحرك على النحو الذي يمتع. وسلوكه مثل الريح التي تهبّ كما تشاء. وهو غير منغلق على نفسه في وجوده المتشظي، والمحدود، والمحصور، والأناني، فقد غادر هذا السجن. ولقد قال واحد من معلمي زن العظماء: "الرجل الذي هو سيّد نفسه يسلك لنفسه حقاً". وأنا أدعو هذا الرجل فنان الحياة الحقيقي.

لقد لامست ذاته اللاوعي منبع الإمكانات اللا نهائية. ولامست "لا ـ عقله". يقول القديس أغسطين: "أحبّ الله وافعل ما تشاء". وهو قول ينسجم مع قصيدة بونان، معلم زن قبل القرن السابع عشر":

بينما أنت حيّ
كن رجلاً ميتاً،
ميتاً تماماً،
وافعل كما تشاء،
عندئذ يصبح كل ما تفعله صالحاً خيّراً

فأن تحب الله يعني أن تكون بلا ذات، وأن تكون بلا عقل، أن تصبح "رجلاً ميتاً"، وأن تتحرر من درافع الوعي المقيّدة. إن "صباح الخير" التي يقولها مثل هذا الرجل خالية من أي عنصر من عناصر المصلحة البشرية الراسخة. وهو يردّ إذا ما خاطبه الآخرون. ويشعر بالجوع فيأكل. ومن الواضح أنه رجل طبيعي، آت من الطبيعة مباشرةً دون إيديولوجيات الإنسان المتحضّر الحديث المعقّدة. ولكن يا لهذا الغنى في حياته الداخلية! ذلك أنه في اتصال مباشر مع اللاوعي العظيم.

لا أعلم إن كان من الصائب أن ندعو هذا النوع من اللاوعي **اللاوعي الكوني**. والسبب في أنني أحب أن أدعوه كذلك هو أنّ ما نسميّه عموماً بالحقل النسبي للوعي يتلاشى في مكان ما متحولاً إلى المجهول، وهذا المجهول، حالما يتم إدراكه، يدخل الوعي العادي ويرتّب بصورة حسنة كل التعقيدات الموجودة هناك والتي تعذّبنا إلى هذا الحدّ أو ذاك. وهكذا يكون المجهول مرتبطاً بعقلنا، وإلى ذلك الحدّ لابدّ أن يكون للمجهول والعقل الطبيعة ذاتها نوعاً ما ويوطّدان اتصالاً

متبادلاً. وهكذا نستطيع أن نقول إن وعينا المحدود، بقدر ما نعرف حدوده، يسوقنا إلى كل ضروب القلق، والخوف، وعدم الاستقرار. ولكن حالما ندرك أن وعينا يأتي من شيء متعلّق صميمياً بنا، على الرغم من أنه ليس معروفاً على النحو الذي نعرف به الأشياء النسبية، فإننا نتخلّص من كل أشكال التوتر ونكون في راحة تامة وسلام مع أنفسنا ومع العالم عموماً. ألا ندعو هذا المجهول **اللاوعي الكوني**، أو منبع الإبداع اللامتناهي الذي تقتات عليه، ليس إلهامات الفنانين وحسب، بل الذي يمكّننا نحن الكائنات العادية أيضاً من تحويل حياتنا، كلٌّ تبعاً لمواهبه الطبيعية، إلى شيء من الفن الأصيل؟

وقد توضح القصة التالية إلى حدّ ما ما أعنيه بتحويل حياتنا اليومية إلى شيء من الفن. ففي القرن الثامن كان يعيش معلم عظيم من معلمي زن اسمه دوغو. وكان لدوغو مريد شاب راغب في تعلّم زن. وقد مكث هذا الشاب مع المعلم لبعض الوقت دون أن يتلّقى منه أي تعليم خاص. وذات يوم دنا من المعلم وقال: " لقد انقضت فترة وأنا معك، ولكنك لم تعطني أية إرشادات. فلماذا؟ أرجوك كن طيباً واسدِ إليّ النصيحة". فأجاب المعلم: "لماذا تقول ذلك! لقد علمتك زن منذ أتيت إليّ". فاحتجّ المريد: "قل لي أرجوك أي تعليم هو هذا". وردّ المعلم: "عندما تراني في الصباح تحييني، وأردّ التحية. وحين تأتي بالفطور، أقبله ممتناً.

ففي أي شيء لم أُشر إلى جوهر العقل؟" وبسماعه هذا طأطأ المريد رأسه وبدا مستغرقاً في فكّ مغالق معنى كلمات المعلم. وعندها قال له المعلم: "حالما تبدأ بالتفكير بهذا، فإنه يكفّ عن أن يكون موجوداً. عليك أن تراه مباشرةً، دون إعمال للفكر، ودون تردد". ولقد قال المعلم هذا لكي ينبّه المريد إلى حقيقة زن.

وحقيقة زن، بل وجزء صغير منها وحسب، هي ما يحوّل حياة المرء المملّة، حياة الاعتياد الرتيبة والخالية من الإلهام، إلى حياة فنّ، مفعمة بالإبداع الداخلي الأصيل.

ثمة في كل هذا شيء سابق في الزمن على الدراسة العلمية للواقع، شيء لا يمكن تمريره من الجهاز المصنوع علمياً.

فاللاوعي بمعناه في زن هو الغامض، والمجهول بلا شك، ولذا فهو غير علمي أو قبل علمي. ولكن هذا لا يعني أنه بعيد عن متناول وعينا أو شيء لا علاقة لنا به. فهو في الواقع، وبخلاف ذلك، أقرب الأشياء إلينا، ونظراً لهذا القرب بالضبط يكون من الصعب الإمساك به، بالطريقة ذاتها التي لا تستطيع بها العين أن ترى ذاتها. ولذا فإننا لكي نصبح واعين باللاوعي يتطلب الأمر منا تدريباً خاصاً للوعي.

وإذا ما تحدثنا من الناحية السببية، فإن الوعي قد تمّ إيقاظه من قبل اللاوعي في فترة ما من مجرى التطور. فالطبيعة تشقّ طريقها غير واعية بذاتها، ثم يخرج منها الإنسان الواعي. والوعي هو قفزة، لكن القفزة لا تعني

انفصالاً بالمعنى الفيزيقي للكلمة. ذلك أن الوعي هو في اتصال دائم مع اللاوعي، دون انقطاع. والحقيقة أنه من دون هذا الأخير لا يمكن للأول أن يقوم بوظيفته؛ حيث يفقد أساس عمله. وهذا هو السبب في أن زن يعلن أن التاو هو "العقل اليومي". وبالطبع فإن زن يقصد بالتاو اللاوعي، الذي يعمل طوال الوقت في وعينا. وقد يساعد الموندو (سؤال وجواب) التالي على فهم شيء من لا وعي زن: فعندما سأل راهب معلماً عمّا يقصده بـ "الوعي اليومي"، أجاب: "أن آكل حين أجوع؛ وأن أنام حين أتعب".

إنني لواثق من أنكم تتساءلون: "إن كان هذا هو اللاوعي الذي تتحدثون عنه أنتم الزنّيون بوصفه غامضاً إلى حد بعيد ويحظى بالقيمة العظمى في الحياة البشرية باعتباره العامل المحوّل، فإنّا لا نملك سوى أن نضعه تحت طائلة الشك. فكل تلك الأفعال "اللاوعية" قد تم نفيها وإحالتها منذ وقت طويل إلى المجال الانعكاسي الغريزي من وعينا تبعاً لمبدأ الاقتصاد الذهني mental economy. ولابد أننا نودّ لو نرى اللاوعي متصلاً بوظيفة أرفع بكثير من العقل، خاصةً وأنه لا يتمّ بلوغ هذه الوظيفة إلا بعد سنوات طويلة من التدريب الشاق، كما هي حالة المُسَايف. وبالنسبة لهذه الأفعال الانعكاسية، كالأكل، والشرب، والنوم، إلخ، فإننا نتقاسمها مع الحيوانات الدنيا وكذلك مع الأطفال. ولا يمكن

لزن بأيّ حال أن يقيّمها بوصفها شيئاً يكافح الرجل الناضج بالمعنى الحقيقي للكلمة لكي يجد فيها معنى".

دعونا نر ما إذا كان هنالك فارق جوهري أم لا بين اللاوعي "الغريزي" واللاوعي "المدرَّب؟ على نحو رفيع.

كان بانكيي، وهو واحد من معلمي زن العظماء في اليابان الحديثة، معتاداً على تعليم مذهب **الذي لم يولد بعد** the unborn. ولكي يوضح فكرته كان يشير إلى وقائع من تجربتنا اليومية مثل سماع عصفور يزقزق، ورؤية زهرة متفتحة، إلخ، ويقول إن هذه كلها ناجمة عن حضور **الذي لم يولد بعد فينا**. ثم يتوصل إلى نتيجة مفادها أن كل **ساتوري**[6] لابد أن تكون قائمة على هذه التجربة دون غيرها.

يبدو هذا، على السطح، كما لو أنه يشير إلى التماهي بين مجالنا ـ الحسي **والذي لم يولد بعد** الميتافيزيقي الرفيع. والتماهي ليس خطأ بمعنى ما، لكنه خطأ بمعنى آخر. ذلك أن **الذي لم يولد بعد** هو بالنسبة لبانكيي جذر الأشياء جميعاً، ويشتمل ليس على مجال الحسّ في تجربتنا اليومية وحسب، وإنما على كل الوقائع الماضية، والحاضرة،

---

[6] انظر أدناه، وكذلك مقالات في بوذية زن، والسلسلة الأولى، ص227 وما يليها.

ـ الساتوري، هي الاستنارة الحاصلة نتيجة حَدس مفاجئ. وبالطبع فإن هذه الاستنارة قد تحصل تبعاً لزن، نتيجة التأمل في معضلة ذهنية (كوان) ـ م ـ.

والمستقبلية ويملأ الكون حتى أطراف الجهات العشر. أما "عقلنا اليومي"، أو تجربتنا اليومية"، أو أفعالنا الغريزية، فليس لها قيمة أو أهمية خاصة بحدّ ذاتها. ولا تكتسب تلك القيمة أو الأهمية إلا حين يكون **الذي لم يولد بعد** أو ما أدعوه "**اللاوعي الكوني**" مرجعاً لها. ذلك أن الذي **لم يولد بعد** هو منبع كل الإمكانات الإبداعية. وهكذا يكون الذي لم يولد بعد هو الذي يأكل حين نأكل وليس نحن؛ وحين ننام متعبين، ليس نحن من ننام بل **الذي لم يولد بعد**.

وما دام اللاوعي لا وعياً غريزياً، فإنه لا يتجاوز لا وعي الحيوانات أو الأطفال. ولا يمكن أن يكون لاوعي الرجل الناضج. فما يخصّ هذا الأخير هو اللاوعي المدرّب الذي تمّ فيه اندماج كل التجارب الواعية التي خاضها المرء منذ الطفولة بوصفها مكوّنة لكيانه كله. ولهذا السبب فإن براعة المُسايف حالما يُشهر السيف، جنباً إلى جنب مع وعيه لكامل الوضع، تتراجع إلى الخلف ويبدأ لاوعيه المدرّب بلعب دوره إلى أبعد حدّ. وهكذا يسيطر السيف على الأمور ويعالجها بنجاح كما لو أنه قد امتلك نفساً بحدّ ذاته.

ولعل من الممكن القول: إن اللاوعي بقدر ما يكون مرتبطاً بالمجال الحسي يكون نتاجاً لسيرورة طويلة من التطور في تاريخ الحياة الكوني، وتُقاسمُنا إياه الحيوانات والأطفال على حدّ سواء. بيد أن المجال الحسي يغزوه الفكر وتضيع سذاجة التجربة الحسّية حين يحدث التطور الفكري، مع

ازدياد نموّنا، فحين نبتسم، لا يكون ذلك مجرد ابتسام وحسب: فثمة شيء ما آخر ينضاف إليه. ونحن لا نأكل كما كنا نأكل في طفولتنا؛ فالأكل مختلط مع التفكير. وكما نعلم جميعاً فإن هذا الغزو من قبل الفكر أو الاختلاط مع الفكر، هو أفعال بيولوجية بسيطة ملوّثة بمصلحة أنانية. وهذا يعني أن ثمة دخيلاً متطفلاً في اللاوعي الآن، هذا اللاوعي الذي لم يعد بمقدوره التحرك رأساً وفوراً إلى حقل الوعي، كما يعني أن جميع الأفعال التي أُنزلت إلى مرتبة الوظائف الغريزية بيولوجية تتخذ الآن دور أفعال يوجهها الفكر والوعي.

ويُعرَف هذا التحول باسم فقدان "البراءة" أو اكتساب "المعرفة" بالمعنى الذي لهذه الكلمة في الأسطورة التوراتية[7]. أما في زن والبوذية عموماً فيُدعى "التلوث الوجداني [كليشا]" أو "تدخّل العقل الواعي المحكوم بالتفكير [فينجنانا]".

يطالب زن الآن هذا الرجل الناضج بأن يطهّر نفسه من هذا التلوث الوجداني، وأن يحرر نفسه أيضاً من تدخل الوعي الفكري إن كان يرغب صادقاً بتحقيق حياة حرية وعفوية، حيث لا مجال لأن تُغير عليه المشاعر المنغّصة كالخوف، والقلق، أو انعدام الأمن. وحين يحصل هذا

---

[7] من المعروف أن آدم وحواء قد انفتحت أعينهما واعتراهما شعور الخجل حين وجدا نفسيهما عاريين بعد أن أكلاً من ثمار شجرة المعرفة ـ م ـ.

التحرر، نكون أمام اللاوعي "المدرَّب" وهو يعمل في حقل الوعي. ونعرف عندها ما هو "**الذي لم يولد بعد**" عند بانكيي أو "العقل اليومي" لدى علم زن الصيني.

3

نحن مستعدون الآن لسماع نصيحة تاكوان لتلميذه المُسَايف ياغيو ـ تاجيما ـ نو ـ كامي.

وهي نصيحة معنيّة أساساً بإبقاء العقل في حالة "جريان" دائم، إذ يقول إن توقف هذا الجريان في أي مكان يعني أنه قد تمّ اعتراضه، وأن هذا الاعتراض مؤذ للعقل ولا خير فيه. وهو في حالة المُسايف يعني الموت. فاللطخة الوجدانية تُعتمُ مرآه **البراجنا** البدئية لدى الرجل، والتروّي الفكري يعترض سبيل نشاطها الفطري. **والبراجنا**، التي يدعوها تاكوان "**البراجنا** الساكنة" هي الهيئة الموجّهة لكل حركاتنا، في الداخل والخارج، وعندما تُعاق أو يتم اعتراض سبيلها يتخثّر العقل الواعي وينسدّ ويبدأ السيف بإطاعة المهارة الفنية التقنية المكتسبة بصورة واعية، مستخفّاً بنشاط "**البراجنا** الساكنة" الفطري، والحر، والعفوي، هذه **البراجنا** التي

توازي لا وعينا وتقابله. إن **البراجنا** هي المتحرك الذي لا يتحرك والذي يعمل بصورة ساكنة في حقل الوعي.

فحين يقف المُسايف قبالة خصمه، ينبغي ألاّ يفكر بالخصم، ولا بنفسه، ولا بحركات سيف عدوه. بل يقف هناك وحسب بسيفه الذي لا يتبع في الحقيقة سوى إملاءات اللاوعي، ناسياً كل تقنية. فالرجل يمحو نفسه كمُستخدم للسيف ومسيطر عليه. وحين يضرب، فإن الذي يضرب ليس الرجل بل السيف في يد اللاوعي. وثمة قصص لم يكن فيها الرجل مدركاً لواقعة أنه قد صرع الخصم ـ وكل ذلك بصورة لا واعية. إن عمل اللاوعي هو في كثير من الحالات خارق ومُعجز حقاً.

وإليكم هذا المثال: **السبعة الرائعون**.

ثمة مسرحية سينمائية يابانية، شاهدها الجمهور الأمريكي مؤخّراً، وفيها مشهد يقدّم فيه الساموراي[8] العاطلون اختباراً لإظهار براعتهم في استخدام السيف. ومع أن ذلك قائم على التخييل، إلا أنه برمته قائم أيضاً على وقائع التاريخ. فصاحب المشروع يتدبّر طريقة معينة يختبر على أساسها كل واحد من المسايفين، حيث يضع شاباً

---

[8] الساموراي، طبقة المحاربين المحترفين أيام الإقطاع في اليابان. حيث تمّ إعفاؤهم من العمل في الأرض وتفريغهم للحياة العسكرية مقابل مخصصات معينة. وهكذا شكلوا جيشاً عسكرياً وما يشبه طبقة من النبالة العسكرية ذات القيم البطولية ـ م ـ .

قروياً خلف البواية التي ينبغي أن يمرّ منها كل داخل إلى المبنى. فإذا ما حاول ساموراي أن يتخطى العتبة ضربه الشاب على حين غرّة بعصا منتظراً أن يرى كيف سيتصرف.

وهكذا وقع الأول في الفخّ وتلقى العصا التي هوت عليه بكل قوة، وفشل في اجتياز الاختبار. أما الثاني فقد تفادى الضربة وضرب الشاب. ولم يفكر جيداً بما يكفي لاجتياز الاختبار. أما الثالث فقد وقف على المدخل وقال للشاب الذي يقف خلف البوابة ألا يحاول القيام بمثل هذه الألاعيب السخيفة مع محارب متمرّس للغاية. فقد أحسّ هذا الساموراي بوجود عدوّ خفيّ في الداخل حتى قبل أن يكتشف حقاً من هو المختبئ. وهذا عائد إلى التجربة الطويلة التي خاضها هذا الساموراي في تلك الأيام العصيبة. وهكذا أثبت أنه المرشح الناجح للقيام بالعمل الذي كان ينبغي القيام به في القرية.

يبدو أن هذا الإحساس بعدوّ غير منظور كان متطوراً لدى المسايفين إلى درجة رفيعة جداً من الكفاءة والفعالية في مراحل الإقطاع، تلك حين كان على الساموراي أن يكون على أهبة الاستعداد لكل وضع قد يستجدّ في حياته اليومية. وحتى أثناء نومه كان مستعداً لمواجهة حدث خارجي طارئ.

لا أعلم إن كان من الممكن تسمية هذا الإحساس بالحاسة السادسة أو نوعاً من التخاطر telepathy فيكون بالتالي

موضوعاً من موضوعات ما يدعى بالباراسيكولوجيا[9]. وثمة شيء واحد على الأقل أرغب في أن أشير إليه هو أن فلاسفة المسايفة يعزون هذه الحاسة التي اكتسبها المسايف إلى عمل اللاوعي الذي يستيقظ حين يبلغ المسايف حالةً من اللاذاتية self lessness واللاعقل no mind. وهم يرون أن الإنسان حين يتمّ تدريبه حتى يصل إلى أعلى درجات الفن يكفّ عن أن يكون لديه الوعي النسبي العادي الذي يدرك بواسطته أنه متورط في صراع حياة أو موت، وأن عقله حين يسري مفعول هذا التدريب يكون مثل مرآة تنعكس فيها كل فكرة تجول في عقل خصمه، ويعرف في الوقت ذاته أين وكيف يضرب الخصم. (وللدقّة، فإن هذه ليست معرفة بل هي حَدس حاصل في اللاوعي). إن سيفه يتحرك، آلياً، وبذاته، فوق خصمه الذي يجد الدفاع مستحيلاً لأن السيف يهوي على المنطقة غير المحميّة على الإطلاق. وهكذا يقال إن لا وعي المسايف هو نتاج اللاذاتية التي، نظراً لكونها في تناغم مع "**عقل السماء والأرض**"، تصرع كل ما هو مناهض لهذا **العقل**. إن السباق أو معركة المسايفة ليسا للأسرع أو الأبرع أو الأقوى، بل لمن هو غير ذاتيّ وعقله أنقى.

---

[9] الباراسيكولوجيا، علم يدرس الظاهرات المتجاوزة لما هو عادي. وغالباً ما تُنقل إلى العربية بمعنى علم ما وراء النفس ـ م ـ .

وتبقى مسألة أخرى، هي أن نقبل هذا التأويل أو لا نقبله، فالحقيقة هي أن المسايف البارع يمتلك ما قد نصفه باللاوعي، وأن هذه الحالة العقلية يتمّ اكتسابها حين لا يعود واعياً أفعاله ويترك كل شيء لشيء ليس من وعيه النسبي. ونحن ندعو هذا بالشيء؛ فنظراً لكونه خارج حقل الوعي العادي، فإننا لا نمتلك كلمة نطلقها عليه ما عدا تسميته باسم سلبي، س، أو اللاوعي. وإن المجهول، أو س، لغامض جداً. ونظراً لارتباطه مع الوعي بطريقة ينتفع فيها من كل المهارة التقنية المكتسبة بصورة واعية، فقد لا يكون من الملائم تسميته باللاوعي.

4

ما طبيعة هذا اللاوعي؟ هل يقع داخل إطار **السيكولوجيا**، وإن يكن بالمعنى الواسع لهذا المصطلح؟ وهل هو مرتبط نوعاً ما بمنبع الأشياء جميعاً، "**عقل المساء والأرض**"، أم بشيء ما آخر مطروح في انطولوجيا[10]

[10] ـ الانطولوجيا: فرع من الميتافيزياء يُعنى بمشكلة طبيعة الوجود أو الكينونة ـ م ـ.

المفكرين الشرقيين؟ أم أن علينا أن نسميه "المعرفة المرآتية الكاملة العظيمة (أدارساناجنانا)، كما يسميه في بعض الأحيان معلمو زن؟

قد لا تكون الحادثة التالية، التي رواها ياغيو تاجيما ـ نو ـ كامي، مريد تاكوان، ذات علاقة مباشرة باللاوعي الموصوف في ما سبق من هذه المحاضرة. وأحد أسباب ذلك أنّ ياغيو تاجيما ـ نو ـ كامي لا يواجه هنا عدوّاً فعلياً. ولكن الأمر قد لا يكون مختلفاً عمّا يراه السيكولوجي حين يعتبر أن من الممكن تطوير مقدرة أو ملكة باراسيكولوجية من خلال التوصل إلى شكل معين من الانضباط، ويمكن أن أضيف أن حالة ياغيو تاجيما ـ نو ـ كامي لم تُختَبَر، بالطبع بطريقة علمية. بيد أن ثمة عدداً من هذه الحالات مسجَّلة في حوليات المسايفة اليابانية، وثمة سبب حتى في تجاربنا الحديثة للاعتقاد بإمكانية حصول مثل هذه الحادثة "التخاطرية"، في حين عليّ أن أكرر أن هذا النوع من الظواهر السيكولوجية قد لا يكون على علاقة باللاوعي الذي تحدثت عنه.

ذات يوم من أيام الربيع كان ياغيو تاجيما ـ نو ـ كامي في حديقته مستمتعاً بأزهار الكرز في أوج تفتّحها. وكان، في

الظاهر، مستغرقاً في تأمل عميق. وفجأة شعر بـ "ساكي[11]" تهدده من الخلف. واستدار ياغيو، لكنه لم ير أيّ كائن بشري قريب سوى مرافقه الصغير الذي يتبع سيده في العادة حاملاً سيفه. ولم يستطع ياغيو تحديد المصدر الذي انبعثت منه الساكي، الأمر الذي حيّره إلى أبعد حدّ. ذلك أنه بعد تدريب طويل في المسايفة كان قد اكتسب نوعاً من الحاسة السادسة التي يمكنه بواسطتها أن يكتشف في الحال وجود الساكي.

وسرعان ما عاد ياغيو إلى غرفته محاولاً حل المسألة التي نغّصته كثيراً، فهو لم يخطئ أبداً من قبل في اكتشاف مصدر الساكي وتحديد موقعها بدقة كلما أحسّ بوجودها، وبدا

---

[11] ـ ساكي: تعني حرفياً "رائحة القتل". وكثيراً ما يشير المسايف إلى هذا النوع من الحوادث. إنها شيء ما لا يوصف، ويتم الشعور بها داخلياً وحسب بوصفها منبعثة من شخص أو شيء. وغالباً ما يحكي الناس عن واقعة أن بعض السيوف مفعمة بـ "رائحة القتل" هذه، في حين أن أخرى تفعم المرء بإحساس بالرهبة، أو المهابة، أو حتى الإحسان، ويُعزى ذلك عموماً إلى طبع ومزاج الفنان صانع السيف، لأن العمل الفني يعكس روح الفنان، والسيف في اليابان ليس سلاحاً للقتل وحسب بل عمل فني أيضاً، والساكي تنبعث أيضاً من شخص يضمر فكرة قتل أحد ما أو يعلنها. ويقال أيضاً إن هذه "الرائحة" ترفرف فوق كتائب الجند العازمين على مهاجمة العدو.

منزعجاً لدرجة أن خدمه ومرافقيه خافوا من الدنوّ منه وسؤاله عن الأمر.

وأخيراً، دخل عليه واحد من خدمه القدماء ليسأله إن كان مريضاً يحتاج إلى عون ما. فقال السيد: "لا، لست مريضاً ولكنني عانيت شيئاً غريباً بينما أنا في الحديقة، وهو يتجاوز قدرتي على الفهم، وإنني أفكر بالأمر". وحكى للخادم الحادثة كلها.

عندما ذاع الخبر بين المرافقين، تقدم الصغير الذي يتبع السيد واعترف قائلاً: "حين رأيت سيادتك مستغرقاً جداً في إعجابك بأزهار الكرز، هبطت عليّ فكرة مفادها أنك لن تستطيع الدفاع عن نفسك مهما تكن ماهراً في استخدام السيف إذا ما ضربتك فجأة من الخلف. ولعلك قد شعرت يا سيدي بفكرتي السرّية هذه". وباعترافه هذا، كان الصغير مستعداً لعقاب السيد على فكرته المضمرة.

ولقد جلا هذا الاعتراف كل الإبهام الذي نغّصَ ياغيو إلى حدّ بعيد فصفا مزاجه ولم يُنزل أي عقاب بالمتهم الصغير البريء، وشعر بالرضا لاكتشافه أن شعوره لم يكن دون أساس.

III- مفهوم الذات في بوذية زن

إن مقاربة زن للواقع، والتي يمكن تعريفها بأنها مقاربة قبل علمية، هي في بعض الأحيان مناهضة للعلم بمعنى أن زن يتحرك بعكس الاتجاه الذي يتخذه العلم تماماً. وهذا لا يعني بالضرورة أن زن نقيض العلم، وإنما أن على المرء كي يفهم زن أن يتخذ موقفاً كان قد تمّ تجاهله إلى الآن من قبل العلماء بوصفه "غير علمي".

تتميز العلوم بأنها نابذة centrifugal على نحو مضطرد، وبأنها انبساطية [1] extraverted، وتنظر "بصورة موضوعية" إلى الشيء الذي تنهض بدراسته. فهي تتخذ موقفاً مؤدّاه إبقاء الشيء بعيداً عنها فلا تتماهى مع موضوع دراستها. وهي حين تنظر إلى الداخل لمعاينة الذات تكون

---

[1] الانبساط هو اتجاه اهتمامات الشخص صوب الخارج بدلاً من التوجه صوب أفكار الذات ومشاعرها. وهذا عكس الانطواء والانكباب على مشاغل الذات والتأملات الباطنية ـ م ـ.

متنبّهة لأن تدفع إلى الخارج ما هو في الداخل، وبهذا تجعل نفسها غريبةً عن نفسها وكأن ما هو في الداخل لا ينتمي إليها. فهي تخشى تماماً أن تكون "ذاتية". لكن علينا أن نتذكّر أننا ما دمنا في الخارج فإننا خارجيونoutsiders ، بالضبط لأننا عاجزون عن معرفة الشيء ذاته، وكل ما يمكن أن نعرفه هو عن الشيء ـ الأمر الذي يعني أننا لا نستطيع أبداً أن نعرف ما هي ذاتنا الفعلية. وهكذا، فإن العلماء لا يمكنهم أبداً أن يتوقعوا التوصل إلى **الذات**، مهما رغبوا بذلك، ولا شك أن بمقدورهم أن يتكلموا **عنها** كثيراً، لكن ذلك هو كل ما يمكنهم القيام به. ولذا فإن النصيحة التي يسديها زن إلينا هي أن نعكس الاتجاه الذي يتخذه العلم إن كنا نريد التعرّف فعلاً على **الذات**. ولقد قيل إننا كي ندرس النوع الإنساني دراسة ملائمة علينا أن ندرس الإنسان، وينبغي في هذه الحالة أخذ الإنسان بمعنى **الذات**، لأن النوع الإنساني وليس النوع الحيواني هو الذي يمكنه دوماً أن يعي **الذات**. وأخشى أن الرجال والنساء الذين لا يتوقون إلى معرفة **الذات** مضطرون لخوض دورة أخرى من دورات الولادة والموت. ذلك أن" معرفة ذواتهم" هي معرفة **الذات**.

والمعرفة العلمية لـ **الذات** ليست معرفة واقعية ما دامت تُمَوضع objectify **الذات**. وينبغي قلب اتجاه الدراسة العلمية، والإمساك بـ **الذات** من الداخل وليس من الخارج.وهذا يعني أن على **الذات** معرفة ذاتها دون الخروج

من ذاتها. وقد يتساءل البعض: "كيف يمكن هذا؟ فالمعرفة تشتمل دوماً على انقسام، العارف وموضوع المعرفة". وأردّ قائلاً، "لا يمكن معرفة الذات إلا بحصول التماهي بين الذات والموضوع؛ أي بوضع حدّ للدراسات العلمية، وإلقاء كل أدوات التجريب الخاصة بها جانباً، والاعتراف بأنها عاجزة عن المضي في أبحاثها أبعد من ذلك ما لم تتجاوز نفسها بإنجاز قفزة إلى ميدان الذاتية المطلقة".

إن ميدان الذاتية المطلقة هو حيث تقيم الذات. وكلمة "تقيم" ليست صائبة تماماً هنا. لأنها لا تشير إلا إلى الوجه السكوني من الذات. في حين أن الذات متحركة أو صائرة becoming على الدوام، إنها الصفر الذي هو السكون، ولكنه اللانهاية في الوقت ذاته، مما يدل على أنها متحركة طوال الوقت. فـ الذات دينامية.

يمكن مقارنة الذات بدائرة لا محيط لها، وبالتالي فهي سونياتا، أو فراغ. ولكنها أيضاً مركز مثل هذه الدائرة، والذي يمكن أن يكون في كل مكان من الدائرة وفي أي مكان منها. والذات هي نقطة الذاتية المطلقة التي قد تنقل إحساس الحركة أو السكون. وبما أن من الممكن تحريك هذه النقطة في أي مكان نريد، نحو مواضع متنوعة إلى ما لا نهاية، فإنها في الواقع ليست نقطة. فالنقطة هي الدائرة والدائرة هي النقطة. ومن الواضح أن هذه المعجزة المستحيلة تحدث حين

يتمّ عكس الاتجاه الذي يتخذه العلم والتحول إلى زن. فزن في الحقيقة هو محقّق هذا المستحيل.

وإذاً، فإن تحرّك **الذات** من الصفر إلى اللانهاية ومن اللانهاية إلى الصفر ليس موضوع دراسات علمية بأية صورة من الصور. وكما هو الحال مع الذاتية المطلقة، فإنها تروغ من كل جهودنا الرامية إلى وضعها في أي موضع محدّد بصورة موضوعية. وبما أنها مراوغة ومتملصة لا يمكن الإمساك بها، فإننا لا نستطيع إجراء التجارب عليها بأية طريقة علمية. ولا نستطيع إيقاعها في أحابيل أية واسطة مبنيّة موضوعياً. ولا يمكن القيام بذلك ولو تضافرت كل المواهب العلمية، لأن هذا ليس من طبيعة الأشياء الواقعة ضمن مجال علمهم. **والذات** حين تكون منضبطة بصورة ملائمة تعرف كيف تكتشف ذاتها دون الخضوع لسيرورة المَوضَعة objectification.

لقد أشرت من قبل إلى كتاب دي روجيمون، **بحث الإنسان الغربي**، والذي يسمّي فيه "الشخص" و"الآلة" بوصفهما اثنين من السمات المميزة لطبيعة البحث الغربي عن الواقع. وتبعاً له، فإن "الشخص" tha person كان في البداية مصطلحاً قانونياً في روما. وحين طرحت المسيحية مسألة الثالوث المقدّس بدأ بحاثتها باستخدام المصطلح لاهوتياً، كما نرى في تعابير مثل "الشخص الإلهي" و"الشخص البشري"، المتصالحين بانسجام في المسيح. أما

المصطلح كما نستخدمه اليوم فيشتمل على تضمُّن connotation أخلاقي ـ سيكولوجي إلى جانب جميع دلالاته التاريخية، ويمكن في النهاية ردّ مشكلة الشخص إلى مشكلة الذات.

شخص دي روجيمون إثنيني من حيث طبيعته، وثمة نوع من الصراع الجاري على الدوام داخل ذاته. وهذا الصراع أو التوتر أو التناقض هو ما يشكل جوهر الشخص، ويتأتّى من ذلك بشكل طبيعي أن شعور الخوف واللا يقين يرافقان خفيةً كل صيغة يبديها من صيغ النشاط. ويمكن القول، في الواقع، إن هذا الشعور بالضبط هو ما يدفع الشخص إلى ارتكاب أفعال غير متزنة من الهوى والعنف. إن المشاعر موجودة عند منبع كل الأفعال الإنسانية، وليست مصاعب جدلية. فالسيكولوجيا تأتي أولاً، ومن ثم المنطق والتحليل، وليس العكس.

وهكذا فإن من المستحيل على الغربيين، تبعاً لاي روجيمون، أن يتجاوزوا الإثنينية الكامنة في طبيعة الشخص ذاتها ما داموا متشبثين بالتقليد التاريخي ـ اللاهوتي الخاص بهم عن الإله ـ الإنسان أو الإنسان ـ الإله. وهذا الصراع الإثنيني في اللا وعي والإحساس بالقلق الناجم عنه هو السبب في أنهم يقومون بمغامرات في الزمان والمكان. وهم انبساطيون تماماً وليسوا انطوائيين. وبدلاً من النظر في طبيعة الشخص داخلياً والإمساك بها، يكافحون موضوعياً لتسوية

الصراعات الإثنينية التي يتبيّنونها على مستوى التفكير. أما بالنسبة للشخص ذاته، فاسمحوا لي أن أقتبس من دي روجيمون حيث يقول:

الشخص نداء وجواب، إنه فعل وليس واقعة أو شيئاً، والتحليل الكامل للوقائع والأشياء سوف لن يقدّم أبداً برهاناً عليه لا جدال فيه. (ص50).

ليس الشخص هنا أو هناك أبداً، إنما هو في فعل، في توتر، في اندفاع عنيف ـ وقلما يكون مصدراً لتوازن سعيد، كما يحاول عمل باتش أن يعطينا هذا الانطباع. (ص55).

إن هذا ليبدو رائعاً. فالشخص هو حقاً ما يصف دي روجيمون. وهو يتفق مع ما يقوله البوذيون عن الـ أتمان[2]، من أنها "ماضية في الانحلال (فيزانكارا)". لكن الماهايانيون[3] قد يرغبون بطرح السؤال التالي على مؤلف

---

[2] الأتمان: ، هي الروح عند البوذيين، وهم يعتقدون أنه لا توجد روح دائمة، ثابتة وحقيقية داخل الفرد الإنساني ـ م ـ .

[3] الماهايانا، مدرسة بوذية، إلى جانب الثيرافادا (البوذية القديمة) والتي اكتسبت لاحقاً اسم ال"هينانايا"، ويعود الفضل إلى الماهايانا في انتشار البوذية على نطاق واسع خارج الهند. وتشير عبارة "يانا" إلى وسيلة عبور، مثل زورق أو عربة. والماهايانا تعنى "الوسيلة الكبرى" في حين تعني الهينانايا "الوسيلة الصغرى". ومع الماهايانا تحولت الانعزالية السلبية في البوذية الأولى إلى نزعة إيجابية تفاؤلية. والطائفة الكبرى في البوذية هي الماهايانا، والصغرى هي الهينانايا ـ م ـ .

المقطعين السابقين: "من أنت لتقول كل هذه الأشياء الرائعة من وجهة النظر المفاهيميّة؟ إننا نوّد أن نقابلك شخصياً، أو عيانياً، أو حضورياً، وحين تقول: "ما دمت أحياً، فأنا أحيا في تناقض، من هو هذا الـ "أنا"؟ وحين تخبرنا أن من الواجب الوثوق بالتناقض الجوهري في الشخص ثقة تامة، من هو الذي يثق بذلك ثقة تامة؟ من هو الذي يبذل هذه الثقة التامة؟ فخلف الثقة التامة، وبذلها، والصراع، والمفَهَمة لابد أن يكون ثمة إنسان حيّ يقوم بكل ذلك".

وإليكم قصة راهب زنّي وضع إصبعه مباشرة وبشكل ملموس على الشخص وترك لسائليه أن يروا ما هو. وقد أصبح هذا الراهب معروفاً فيما بعد باسم أوباكوكي - أُن (توفي 850)، وهو واحد من معلمي زن العظماء. ففي أحد الأيام زار حاكم إحدى المناطق ديراً يقع تحت سلطانه. وأخذه رئيس الدير كي يعاين أقسام المبنى المختلفة. وحين وصلوا إلى حجرة عُرضت فيها صور رؤساء الدير السابقين، أشار الحاكم إلى واحد منهم وسأل رئيس الدير: "من هذا؟" فأجابه رئيس الدير، "إنه رئيس الدير السابق". وكان سؤال الحاكم التالي: "هاهنا صورته، وأين الشخص؟" فلم يحر رئيس الدير جواباً. بيد أن الحاكم أصّر على الإجابة عن سؤاله. وتملّك رئيس الدير اليأس، إذ كان عاجزاً عن إيجاد أحد بين أتباعه يمكنه إرضاء الحاكم. وحدث في النهاية أن تذكّر راهباً غريباً قَدم مؤخراً للإقامة في الدير وكان يصرف

جلّ أوقات فراغه في كنس الفناء وترتيبه. واعتقد أن هذا الغريب الذي كان يبدو مثل راهب زنّي، قد يكون قادراً على الإجابة عن سؤال الحاكم. واستدعي الراهب وتمّ تقديمه إلى الحاكم. فخاطبه هذا الأخير باحترام قائلاً:

"سيدي الجليل، لسوء الحظّ أن هؤلاء السادة من حولنا لا يريدون الإجابة عن سؤالي. فهل تتكرّم بأن تتولى الإجابة؟"

فقال الراهب: "ما سؤالك؟"

فأخبره الحاكم بكل ما حدث من قبل وأعاد السؤال: "ها هنا صورة رئيس الدير السابق، وأي الشخص؟"

وفي الحال صرخ الراهب: "أيها الحاكم!"

فاستجاب الحاكم: "أجل، يا سيدي الجليل!"

"أين هو؟" هذا هو الحل الذي قدمه الراهب.

يحبّ العلماء، بما فيهم اللاهوتيون والفلاسفة، أن يكونوا موضوعيين ويتجنبوا أن يكونوا ذاتيين، بصرف النظر عمّا يعنيه هذا. وذلك لأنهم ملتزمون بنظرة مفادها أن قولاً ما لا يكون حقيقياً إلا حين يتم تقييمه أو المصادقة عليه موضوعياً، دون الاكتفاء باختباره ذاتياً أو شخصياً وحسب. وهم ينسون واقعة أن الشخص يحيا حياةً شخصية وليس حياةً تمّ تعريفها مفهومياً أو علمياً. ومهما يكن التعريف المُعطى دقيقاً أو موضوعياً أو فلسفياً، فإن الشخص لا يحيا التعريف بل الحياة ذاتها، وهذه الحياة هي موضوع الدراسة الإنسانية. فليس السؤال هو الذاتية أم الموضوعية. وما يهمنا إلى أبعد

حدّ هو أن نكتشف بأنفسنا، شخصياً، أي هي هذه الحياة، وكيف تُعاش. إن الشخص الذي يعرف ذاته لا يُدمن على التنظير، ولا يكتب كتباً، ولا يتورط في إعطاء الأوامر للآخرين؛ فهو يعيش على الدوام حياته الفريدة، حياته المبدعة الحرة. أما ما هو؟ وأين هو؟ فإن **الذات** تعرف ذاتها من الداخل وليس من الخارج أبداً.

وكما نرى من قصة أوباكو والحاكم هذه، فإننا نرضى عادةً بالصورة أو الشَبَه، ونخفق في طرح السؤال الذي طرحه الحاكم: "ها هنا الصورة، وأين الشخص؟"، متخيلين أن **الإنسان** ميت، وإذا ما أردنا وضع القصة كلها على طريقتنا في قول الأشياء فإننا نقول: "إن الوجود (بما فيه الشخص) يتعزّز بابتكار متواصل لحلول نسبية وتسويات مفيدة". إن فكرة الولادة والموت هي حلّ نسبي ورسم الصور هو نوع من التسوية المفيدة عاطفياً. أما حضور الشخصية الحية فعلاً، فليس شيئاً من ذلك، ومن هنا سؤال الحاكم: "أين الشخص؟" لكن أوباكو كان راهباً زنياً ولم يتوانَ في إيقاظه من عالم المفاهيم الشبيه بالأحلام صارخاً: "أيها الحاكم!" وسرعان ما أتى الردّ: "أجل، يا سيدي الجليل!" إننا نرى هنا الشخص برمته وهو يقفز خارجاً من حجرة التحليل، والتجريد، والمَفهمة. وحين يتم فهم ذلك نعرف ما هو الشخص، وأين هو، وما هي **الذات**. فإذا ما تماهى الشخص

مع مجرد فعل ليس إلا، فلن يكون شخصاً حياً، بل شخصاً مُمَفهَماً، فلا يكون ذاتي، ولا ذاتك.

ذات مرة سأل أحد الرهبان جوشو جوشين (778 ـ897): "ما هي ذاتي؟" فقال جوشو: "هل أنهيت ثريد الصباح؟" "أجل، لقد أنهيته". وعندها قال جوشو: "إن كان الأمر كذلك، فاغسل زبديتك". وبالطبع فإن الأكل فعل، والغسل فعل، لكن بغية زن هي الفاعل ذاته، الآكل والغاسل الذي يقوم بفعل الأكل والغسل؛ وما لم يتم الإمساك وجودياً أو تجريبياً بهذا الشخص، فإن المرء لا يمكنه الكلام عن القيام بالفعل. فمن هو المرء الواعي للقيام بالفعل؟ ومن هو الذي ينقل واقعة الوعي هذه إليك؟ ومن أنت يا من تنقل كل هذا ليس لنفسك وحسب بل لجميع الآخرين؟ إن "أنا"، أو "أنت" أو "هي" أو"هو" ـ ليست سوى ضمائر تقف بدلاً من شيء ما يقبع خلفها. فما هو هذا الشيء؟

ثمة راهب آخر سأل جوشو: "ما هي ذاتي؟" فقال جوشو: "هل رأيت شجرة السرو في الفناء؟" إن ما يهمّ المعلم ليس الرؤية بل الرائي. فإن كانت الذات محور الملفّات الحلزونية وليست أبداً مُوَضَّعةً objectified أو مُوَقعَنَة factualized، فإنها تبقى خارجاً، ويريد منا زن أن نمسك بها بيدينا العاريتين ونُري المعلم ما لا يُمسك، أو يُبلع، أو تمكن موضعته (باليابانية، **فوكاتوكو**، وبالصينية، **بو ـ كو ـ تي**، وبالسنسكريتية، **أنوبالابذا**). ويمكن القول إن التعارض

بين العلم وزن يكمن هنا. بيد أن زن لا اعتراض لديه على مقاربة العلم للواقع، وهذا ما ينبغي أن نتذكره؛ وإنما هو يرغب وحسب بأن يقول للعلماء إن مقاربتهم ليست الوحيدة، وإن هنالك مقاربة أخرى يزعم زن أنها مباشرة أكثر، وجوّانية أكثر، وأكثر واقعية وشخصية، يمكن أن ندعوها مقاربة ذاتية ولكن ليس بالمعنى الذي يخصّون به هذه الكلمة.

إنني أستخدم الكلمات: شخص، فرد، أنا، ذات، في هذه المحاضرة بمثابة مترادفات. فالشخص أخلاقي أو نزوعي، والفرد متعارض مع أية جماعة مهما تكن، والأنا سيكولوجي، والذات أخلاقية وسيكولوجية على السواء كما أنها تتضمن بعداً دينياً.

من وجهة نظر زن، فإن ما يميّز تجربة **الذات** على نحو فريد، ومن الناحية السيكولوجية، هو أنها مشبعة بشعور الاستقلال، والحرية، وتقرير المصير، وأخيراً الإبداع، وكان هوكوجي قد سأل مرةً باسو دو - إيتشي (توفي 788): "من هو الشخص الذي يقف وحده تماماً دون شريك بين العشرة آلاف شيء (**دهارما**)؟ فأجاب باسو؟: "سوف أقول لك حين تبلغ النهر الغربي دفعةً واحدة". هذا هو نوه الإنجاز الذي تحققه **الذات** أو الشخص، وأولئك السيكولوجيون أو اللاهوتيون الذين يتحدثون عن حزمة من التصورات أو الانطباعات المتعاقبة، أو عن **الفكرة** idea، أو عن مبدأ

الوحدة the principle of unity، أو عم الكليّة الدينامية في التجربة الذاتية، أو عن المحور اللاوجودي في النشاطات البشرية ذات الخطوط المنحنية، هم الذين يجرون في الاتجاه المعاكس لاتجاه زن، وكلما جروا بقوة أكبر كلما ابتعدوا عن زن أكثر. ولذلك أقول إن المعلم أو المنطق موضوعي ونابذ بينما زن ذاتي وجابذ.

لقد علّق أحدهم قائلاً: "كل ما هو في الخارج يقول للفرد بأنه لا شيء. في حين أن كل ما هو في الداخل يقنعه بأنه كل شيء". وهذا قول ملفت للانتباه، ذلك أنه الشعور الذي يشعر به كل منا حين يجلس بهدوء وينظر متمعّناً في حجرة كينونته الأعمق. فثمة شيء يتحرك هناك ويهمس له بصوت خفيض أنه لم يولد عبثاً. ولقد قرأت في مكان ما: "لقد حاولت وحدك؛ وحدك عبرت الصحراء؛ ووحدك قد تخيّرك العالم". لكن الإنسان إذا ما نظر في داخله بكل الصدق، فسيدرك آنئذٍ أنه ليس وحيداً مهجوراً، ومعزولاً فثمة في داخله شعور معين بوحدة رائعة ملكية، وسيدرك أيضاً أنه يقف بذاته دون أن يكون منفصلاً عن بقية الوجود. وهذا الوضع الفريد، المتناقض ظاهرياً أو موضوعياً، يحصل حين يقارب الإنسان الواقع بطريقة زن. وما يجعله يشعر على هذا النحو يتأتّى من إبداعه أو أصالته التي يختبرها على نحو شخصي والتي يبلغها حين يتعالى على ميدان التفكير والتجريد. إن الإبداع يختلف عن مجرد

الدينامية dynamism. إنه السمة المميزة للعامل المقرّر لمصيره بنفسه والذي ندعوه **الذات**.

للفردية individuality أيضاً أهميتها في تمييز **الذات** وإظهار حدودها، لكنها سياسية وأخلاقية أكثر ومرتبطة بصورة وثيقة مع فكرة المسؤولية. وهي تنتمي إلى ميدان النسبيات relstivities، وعُرضة لأن تترافق مع قوة إثبات **الذات**. كما أنها واعية بالآخرين على الدوام ومحكومة بهم إلى ذلك الحدّ. وحيث يتم التأكيد على الفردانية Individuation، يسود شعور بالتوتر هو شعور حاصر ومشترك. فليس ثمة حرية هنا، ولا عفوية، وإنما جوّ ثقيل وعميق أو صدّ، وكبت، وقمع يستبدّ بأحدهم والنتيجة هي الاضطراب السيكولوجي بكل أشكاله.

أما التفرد Individuation فهو مصطلح موضوعي يميّز الواحد عن الآخر. وحين يصبح التمييز قاطعاً ومانعاً، تركب الرغبة بالسلطة رأسها وتنفلت من عقالها في الغالب، أما حين لا يكون قوياً أو حين يكون سلبياً إلى هذا الحد أو ذاك، فإن المرء يصبح واعياً إلى أقصى حدّ بحضور الانتقادات أو التعليقات. وهذا الوعي يدفعنا في بعض الأحيان بين فكي العبودية البائسة، مذكّراً إيانا بـ sartor resartus كارليل. و"فلسفة الملابس" هي فلسفة عالم القشور حيث يلبس كل امرئ من أجل الآخرين كي يُظهر نفسه أو نفسها على غير حقيقتها. وقد يكون هذا

شائقاً ومثيراً. ولكنه حين يزيد عن حدّه، يُفقدُ المرء أصالته، ويجعله سخيفاً، ويحوّله إلى سعدان.

وحين يتنامى هذا الوجه من أوجه **الذات** ليصبح بارزاً جداً ومستبداً، فإن **الذات** الحقيقية تُدفع للخلف وغالباً ما تُختَزل إلى شيء تافه يكاد أن يكون غير موجود، الأمر الذي يعني أن **الذات** قد قُمعَت. ونحن جميعاً نعرف ما يعنيه هذا القمع. ذلك أن اللا وعي المبدع لا يمكن قمعه أبداً؛ حيث يؤكد ذاته بطريقة أو بأخرى. وحين لا يستطيع تأكيد ذاته بطريقة طبيعية بالنسبة له، فسوف يكسر كل الحواجز، بعنف أحياناً وبصورة مرضية في أحيان أخرى. وفي جميع الأحوال يتمّ تدمير **الذات** الحقيقية على نحو ميئوس منه.

لقد نغّصت بوذا هذه الواقعة كثيراً فأعلن مذهب **الأنّاتا** أو **النيراتما** أو اللا ـ أنا non ego ليوقظنا من حلم المظاهر. بيد أن بوذية زن لم تَرضَ بطريقة بوذا السلبية نوعاً ما في عرض هذا المذهب، وراحت تشرحه بأكثر الطرق الممكنة استقامةً ومباشرة بحيث لا يخطئ أتباع بوذا في مقاربتهم للواقع. وإليكم مثالاً من رينزَاي غيغين (توفي 867):

في أحد الأيام ألقى رينزاي هذه الموعظة: "ثمة رجل حقيقي دون مكانة أو جاه وبجسد عار، يدخل ويخرج من بوابات وجوهكم (أي أعضاء الحسّ). يا أيها الذين لم يَشهَدوا بعد (هذه الواقعة)، انظروا، انظروا!".

وتقدّم راهب وسأله: "من هو الرجل الحقيقي دون مكانة أو جاه؟"

فقام رينزاي من كرسيه وأمسك بخناق الراهب قائلاً: "تكلّم، تكلّم!"

وتردد الراهب.

فتركه رينزاي وقال: "يا لهذا العود التافه القذر!"[4]

"الرجل الحقيقي دون مكانة أو جاه" هو الاصطلاح الذي يستخدمه رينزاي للدلالة على **الذات**. وتكاد تعاليمه أن تكون متمحورة حصراً حول هذا الرجل (**نن، جين**) أو **الشخص**، والذي يدعى في بعض الأحيان "**رجل ـ الطريق**" (**دونن**، أو **تاوجين**). ويمكن القول إن رينزاي هو أول معلم في تاريخ زن في الصين يؤكد بصورة حاسمة على حضور هذا **الرجل** في كل طور من أطوار نشاطنا الحياتي الإنساني. ولم يكلّ أبداً من جعل أتباعه يتحققون من **الرجل** أو **الذات الحقيقية**. **والذات** الحقيقية هي نوع من الذات الميتافيزيقية الموجودة في تعارض مع الذات السيكولوجية أو الأخلاقية التي تنتمي إلى عالم النسبية المتناهي. ويُعرَّف رجل رينزاي بأنه "دون مكانة أو جاه" أو "مستقل" (مو ـ يي، وو ـ يي)،

---

[4] حرفياً، عود يابس قذر. باليابانية، كانشيكيتسو، وبالصينية. كان ـ شيه ـ تشويه. حيث كان = يابس، شيء = قذر، وكيتسو = عود .

أو (دون ثياب عليه)[5]، وكل ذلك يدفعنا للتفكير بـ الذات "الميتاقيزيقية".

مع هذا التعليق التمهيدي دعونا نتابع كي نقتبس من رينزاي المزيد فيما يتعلق بنظرته إلى الرجل أو الشخص أو الذات، حيث أعتقد أنه يعبّر هنا عن نفسه بفصاحة كاملة وبطريقة تامة، الأمر الذي يساعدنا على فهم مفهوم زن عن الذات.

يقول رينزاي عن الذات، أو عن "الذي هو، في هذه اللحظة، قُدّامنا تماماً يصغي متوحّداً، ومشرقاً، ببصيرة نافذة، لهذا الكلام في الدهارما"[6].

1

(بعد الكلام عن جسد بوذا الثلاثي (تريكايا)، يتابع رينزاي قائلاً: وإني لواثق أن هذه كلها ليست سوى ظلال، ويا أيها السادة الجليليون! عليكم أن تميّزوا الرجل (جين)

---

[5] ـ وويي (بالصينية) وويي (باليابانية) تعني "مستقل" وكذلك "لا ثياب عليه". ذلك أن يي هي في الحالة الأولى "تابع" وفي الثانية "ملابس".

[6] ـ هذه الترجمات هي من أقوال رينزاي، المعروفة باسم رينزاي روكو .

الذي يلهو بهذه الظلال، والذي هو مصدر كل بوذا والملجأ الذي يلوذ به أتباع **الطريق** أينما كانوا.

إنَّ من يَبسط **الدهارما** ويصغي إليها ليس جسدك الفيزيقي ولا معدتك أو كبدك أو كليتك، ولا فراغ المكان. فمن هو إذاً من يفهم كل ذلك؟ إنه **الواحد** الذي قُدَّامك تماماً، ببصيرة نافذة، وبهيئة واحدة لا تقبل القسمة، إشراق متوحّد. وهذا **الواحد** يفهم كيف يكون الكلام في **الدهارما** والإصغاء إليها.

وحين يكون بمقدورك أن ترى هذا، تصبح مثل بوذا والبطاركة تماماً. (فمن يفهم على هذا النحو) لا ينقطع حضوره في أي عهد من العهود. ويكون في كل مكان تطاله أعيننا، فالحدس لا تعوقه سوى عقبات وجداننا؛ ولا يكون الواقع متمايزاً إلا بسبب تخيلاتنا. ولذا فإننا نتقمّص transmigrate في العالم الثلاثي، ونعاني كثيراً من الآلام. وإنني لأرى أن لا شيء أعمق (من هذا **الواحد**)، وأنه بذلك يمكن لكلّ منا أن يجد خلاصه.

يا أتباع **الطريق**! العقل بلا شكل وينفذ إلى الجهات العشر. وبالعينين تكون الرؤية، وبالأذنين يكون السمع؛ وبالأنف تُشم الروائح؛ وبالفم يكون الجدال؛ وباليدين الإمساك؛ وبالساقين السير.

2

يا أتباع **الطريق**، إن **الواحد** الذي هو، في هذه اللحظة، قُدّامنا تماماً يصغي مشرقاً، ومتوحّداً، ببصيرة نافذة (إلى هذا الكلام في **الدهارما**) ـ هذا **الرجل** (**جين**) لا يمكث في أي مكان أينما كان، بل يعبر الجهات العشر، وهو سيد نفسه في العالم الثلاثي. وإذ يدخل كل المواقف، ويميّز كل الأشياء، فإنه ينبغي ألاّ يطرد (مما هو فيه).

إنه ليخترق عالم **الدهارما** بلحظة واحدة. وحين يلاقي بوذا يتكلم بطريقة بوذا؛ وحين يلاقي بطريركاً يتكلم بطريقة بطريرك؛ وحين يلاقي أرهَتاً[7] يتكلم بطريقة أرهَت، وحين يلاقي شبحاً جائعاً يتكلم بطريقة شبح جائع.

إنه ليجتاز كل الأماكن، متنقلاً في كل مكان، وينهمك في تعليم جميع الكائنات في لحظة واحدة ليس إلا.

وحيثما يذهب يبقى نقياً طاهراً، بلا حدود، نوره يخترق الجهات العشر وتكون العشرة آلاف شيء مثل الشيء الواحد.

---

[7] الأرهت: كاهن بوذي بلغ النرفانا، أي البوذي الكامل ـ م ـ .

3

ما هو الفهم الحقيقي؟

إنك أنت من يدخل كل (المواقف): العادية منها والمقدّسة، النجسة والطاهرة، أنت من يدخل كل أراضي بوذا، إلى برج **مايتريا**[8]، وعالم **دهارما فايروكانا**[9]؛ وحيثما تدخل تُظهرُ أرضاً تخضع لـ (مراحل الظهور الأربع): الوجود، ومواصلة الوجود، والهلاك، والاندراس.

وإذ ظهر بوذا في العالم فقد أدار عجلة **الدهارما** العظيمة وعبر إلى النيرفانا[10] (بدلاً من البقاء في العالم إلى الأبد كما قد نتوقع نحن الكائنات العادية). ومع ذلك فإن أمارات ذهابه

---

[8] مايتريا، هو "بوذا المنتظر" - م -.

[9] فايروكانا: كلمة سنسكريتية تعني المستنير وهو اللقب الذي يُطلق على بوذا - م -.

[10] النيرفانا، كلمة سنسكريتية تعني حرفياً "الانطفاء" أو الإخماد. وهي تعني في البوذية الوصول إلى حالة سامية من التحرر عن طريق إخماد رغبات الفرد ووعيه. وهكذا تغتني الشخصية بتفريغها من كل محتوى أناني غير نبيل كيما يحقّ لها الاتحاد بالنفس الكبرى. وهي حال من النعمة أو الغبطة التي لا يُنطق بها أو يعبر عنها بكلمات أو صفات. وهي حال ثالثة إلى جانب الوجود والعدم - م -.

وإيابه غير بادية. وحين نحاول اقتفاء آثار ولادته وموته، فلن نقع على أي شيء في أي مكان.

وإذ دخل عالم **دهارما الذي لم يولد بعد**، فإنه يجتاز كل أرض. وإذ دخل عالم **رحم اللوتس**، فإنه يرى أن كل الأشياء فارغة ولا أساس لها. والكائن الوحيد هو **رجل التاو (تاو ـ جين)** الذي يصغي، مستنداً إلى لا شيء، وفي هذه اللحظة لكلامي في **الدهارما**. وهذا **الرجل** هو أمّ كل بوذا.

وهكذا فإن بوذا هو ابن ذاك الذي لا يسند إلى شيء. وحين نفهم ذاك الذي لا يستند إلى شيء، فإننا نكتشف أن بوذا، أيضاً، يتعذّر الوصول إليه.

وحين يبلغ المرء هذا التبصّر يُقال إنه توصل إلى الفهم الحقيقي. وإذ يجهل المتعلمون ذلك، فإنهم يرتبطون بأسماء وعبارات تسدّ عليهم الرؤية سواء أكانوا عاديين أم حكماء. وحين تُسَدُّ عليهم رؤية **الطريق** بهذه الصورة، فإنهم لا يستطيعون رؤية (**الطريق**) بوضوح.

وحتى الأقسام الاثني عشر لتعاليم بوذا ليست سوى كلمات وعبارات (وليست وقائع). وإذ يفوت المتعلمين فَهمُ ذلك، فإنهم يميلون إلى استخراج معنى من كلمات وعبارات ليس إلا. ولأنهم جميعاً مستندون إلى شيء ما، فإنهم يجدون أنفسهم واقعين في شراك السببية causation ولا يمكنهم النجاة من دورة الولادة والموت في العالم الثلاثي.

فإذا كنت ترغب بالتعالي على الولادة والموت، والذهاب والإياب، وأن تنفلت حرّاً طليقاً، عليك أن تميّز الرجل الذي يصغي في هذه اللحظة لهذا الكلام في **الدهارما**. إنه مَن لا هيئة له ولا شكل، ولا جذر ولا جذع، ومفعم بالنشاط فلا يستقرّ في مكان.

إنه من يستجيب لكل أنواع المواقف ويُظهر نشاطه، على الرغم من أنه لا يأتي من أي مكان، ولذا، ما أن تحاول البحث عنه حتى يبتعد بعيداً؛ وكلما ازددت منه قرباً ازداد عنك بعداً. "سرّ" هو اسمه.

4

ثمة **الواحد** الذي هو قدّام كل أتباع **الطريق** هؤلاء في هذه اللحظة بالذات، يصغي لكلامي في **الدهارما** ـ إنه من لا يحترق بالنار، ولا يغرق في الماء، وهو الذي يمشي الهوينا كما لو أنه في حديقة، حتى حين يدخل الدروب الشريرة الثلاثة أو في **الناراكا**، وهو الذي لا يعاني أية عاقبة

كارميّة[11] حتى حين يدخل ميدان الأشباح الجائعة أو الحيوانات. لماذا؟ لأنه ليس ثمة أي شرط ينبغي عليه تفاديه.

إن كنت تحب الحكيم وتكره العادي، فسوف تغطس في أوقيانوس الولادة والموت. فالأهواء الشريرة نتاج العقل؛ فإذا ما كنت بلا عقل، أيّ أهواء شريرة ستعميك؟ وحين لا تنغّصك المحاباة والصلات، فسوف تبلغ **الطريق** بلمح البصر ودون جهد. أمّا وأنك تعدو بين جيرانك مضطرباً ومُشوشاً، فإنك مضطر للعودة إلى ميدان الولادة والموت، وقد تحاول بـ "عدد لا يحصى من الكالبات"[12] أن تفهم **الطريق** تماماً. بيد أن من الأفضل أن تعود إلى ديرك وتجلس متربّعاً بسلام في قاعة التأمل.

---

[11] الكارما: هي العاقبة الأخلاقية الكاملة لأعمال المرء في طور من أطوار الوجود بوصفها العامل الذي يقرر مصيره في طور تناسخي تالٍ (وذلك تبعاً للاعتقاد البوذي) - م -.

[12] كالبا هو يوم برهما في الهندوسية، ويساوي أربعة ملايين وثلاثمائة وعشرين سنة بشرية - م -.

5

يا أتباع **الطريق**! أنتم يا من تصغون في هذه اللحظة لكلامي في **الدهارما**: لستم العناصر الأربعة (التي تؤلف جسدكم). أنتم من ينتفع بالعناصر الأربعة. وحين يكون بمقدوركم رؤية هذه (الحقيقة)، يمكنكم وقتئذ أن تكونوا أحراراً في ذهابكم وإيابكم. بقدر ما يمكنني أن أرى فإنه ليس ثمة ما أرفضه.

6

مرّةً ألقى المعلم العظة التالية:

ما أطلبه من متعلمي **الطريق** هو أن يؤمنوا بأنفسهم. فلا يلتمسوا ما هو خارجي. ذلك أنكم حين تفعلون تجرّكم القشور وتجدون أنفسكم عاجزين عن تمييز الخطأ من الصواب.

ثمة بوذات، وثمة بطاركة، وقد ينطقون بالقول، لكن ذلك لا يعدو أن يكون ألاعيب لفظية تخلّف وراءها **الدهارما** الفعلية. وحين يحدث أن يبرز أمامكم رجل يعرض كلمة أو

عبارة بما فيها من تعقيدات إثنينية، فإنكم تتحيّرون وتبدؤون بتنمية الشك. وإذ تجهلون ما ينبغي فعله، تهرعون إلى جيرانكم وأصدقائكم باحثين في كل اتجاه. إنكم لضائعون تماماً، فالرجال ذوو الطبع العظيم لا يبددون الوقت بالتورط في جدالات وأحاديث تافهة عن المضيف والمتطفّل، والصواب والخطأ، والمادة والثروة.

إنني [13] أقف هنا غير مُحترم للرهبان أو البشر العاديين. وكائناً من يكون الذي يحضر أمامي، فإنني أعرف من أين يأتي الزائر. ومهما يحاول الادّعاء، فإنني أعرف أنه مستند دوماً إلى كلمات، وإيماءات، وحروف، وعبارات، ليس كلّ منها سوى حلم أو رؤيا. أنا لا أرى سوى الرجل الذي يظهر متغلّباً على كل المواقف التي قد تنشأ؛ فهو الفكرة الغامضة لدى كل بوذا.

ولا يمكن لموقف ـ البوذا the buddha situation أن يدّعي أنه كذلك. إن رجل الطريق (تاو ـ جين أو دوين) المستقل هذا هو من يظهر متغلباً على الموقف.

إذا جاء رجل إليّ وقال: "إنني أبحث عن بوذا"، فإنني أظهر وفقاً لموقف الطهارة. وإذا جاء رجل إليّ وسأل عن

---

[13] أينما ورد ضمير المتكلم في هذه العظة فإنه يدل على "الرجل" (جين) أو "الذاتية المطلقة"، تبعاً لمصطلحاتي .

البوذيساتفا[14]، فإنني أظهر وفقاً لموقف الشفقة (مايتري أو كارونا). وإذا جاء رجل إليّ وسأل عن بوذي (أو الاستنارة)، فإنني أظهر وفقاً لموقف الجمال الذي لا يُضاهى. وإذا جاء رجل إليّ وسأل عن النرفانا، فإنني أظهر تبعاً لموقف السكون الجليل. والمواقف قد تتنوع إلى ما لا نهاية، لكن الرجل لا يتنوّع. ولذا، يُقال: إنه[15] يأخذ أشكالاً تبعاً للظروف والأحوال، شأن القمر الذي ينعكس على الماء (بصور شتى).

(قد يكون ثمة حاجة هنا لبعض الشرح. فالله، ما بقي في ذاته، ومع ذاته، ولذاته، هو ذاتية مطلقة. لكنه حالما يبدأ بالحركة فإنه يكون خالقاً، وينشئ العالم بمواقفه وأحواله المتنوعة إلى ما لانهاية. فالله الأصلي، أو الله ليس متروكاً في عزلته، إنه في كثرة الأشياء،. والتفكير البشري هو الذي يجعلنا ننساه في الغالب ونضعه خارج عالمنا، عالم الزمان

---

[14] البوذيساتفا، بالمعنى الحرفي هو "القريب من اليقظة" أو الذي هو على أعتاب الصحوة، على اعتبار أن بوذا" تعني "المستيقظ على الحقيقة" في بعض معانيها. ويقال إن البوذيساتفا هو كل شخص يقف على أعتاب النرفانا ثم يؤجل عامداً الدخول في حالة الغبطة النهائية شفقة منه على جماهير الناس العاديين. وبدلاً من أن يتحول إلى بوذا كامل فإنه يظل مقيماً في العالم الزماني المؤقت مكرساً نفسه لخلاص الآخرين ـ م ـ .

[15] لقد حشرت هاء الغائب هنا لأن الأصل الصيني، كما هي العادة، يحذف الفاعل. وتدل "الهاء" هذه على الواقع أو الرجل أو الشخص أو الذات ـ م ـ .

والمكان والسببية. إن المصطلحات البوذية لتختلف في الظاهر عن المصطلحات المسيحية، لكننا حين نغوص إلى الأعماق بما يكفي نجد أن التيارين يتقاطعان أو ينبعان من المنبع ذاته).

7

يا أتباع **الطريق**: ثمة حاجة ملحة لأن تلتمسوا الفهم الحقيقي بحيث يمكنكم أن تسيروا في جميع أرجاء هذا العالم دونما حاجز ودون أن تخدعكم كل تلك الأرواح غير البشرية (أي قادة زن المزيفون).

إن الارستقراطي هو من لا يحمل عبء أي شيء، ويبقى عاطلاً، ولا يسم حياته اليومية أي شيء غير عادي.

وحالما تتحولون إلى الخارج بحثاً عن أوصالكم بين جيرانكم (وكأنها لم تكن معكم من قبل) فإنكم ترتكبون خطأ. وقد تحاولون البحث عن البوذا، ولكنه ليس سوى اسم. هل تعرفون **الواحد** الذي يطوف هكذا باحثاً (عن شيء في مكان ما).؟

لقد ظهر البوذات والبطاركة في الجهات العشر في الماضي، والمستقبل، والحاضر، وهدفهم ليس بأقلّ من التماس

الدهارما. وكل أتباع **الطريق** (البوذيون) الذين هم الآن منهمكون في دراسة **الطريق** ـ هم، أيضاً، يبحثون عن **الدهارما** وليس عن أي شيء آخر. وحين يجدونها تكون مهمتهم قد انتهت. وحين لا يجدونها، فسوف يتابعون تناسخهم عبر سبُل الوجود الخمسة.

ما هي **الدهارما**؟ إنها ليست سوى **العقل**. **والعقل** لا شكل له وينفذ في الجهات العشر وتتجلى فعالياته قُدامنّا مباشرةً. والناس لا يصدقون ذلك. ويحاولون اكتشاف أسمائه وعباراته، متصورين أن البوذا دهارما فيهم. فيا لبعدهم عن ذلك! بعد السماء عن الأرض.

يا أتباع **الطريق**! ما الذي تُعنى به مواعظي باعتقادكم؟ إنها تُعنى بـ **العقل** الذي يدخل في الناس العاديين كما في الحكماء، وفي الأشرار كما في الطاهرين، في الدنيويين كما في الروحانيين.

والحال أنك[16] لست عادياً ولا حكيماً، ولا دنيوياً ولا روحانياً. وأنت من يلصق أسماء بالروحاني كما بالدنيوي، بالعادي كما بالحكيم. في حين لا يمكن للدنيوي ولا للروحاني، لا للحكيم ولا للعادي أن يلصق اسماً بهذا **الرجل** **(جين)**.

---

[16] أينما ورد ضمير المخاطب فإنه يستعمل بمعنى "العقل" كما يتجلى في "الرجل" ويمكن هنا أن نضع "أنت" و"الرجل" كل في مكان الأخرى .

يا أتباع **الطريق**! إن عليكم أن تُمسكوا بـ (هذه الحقيقة) وتستعملوها بحرية. لا ترتبطوا بأسماء. (الحقيقة) تُدعى الفكرة الغامضة.

8

إننا لا ننتظر من رجل عظيم الطبع أن يضلله الآخرون. فهو سيد نفسه أينما مضى. وحين يقف يكون كل شي لديه على ما يرام.

حالما تُداخل العقل فكرة شكّ واحدة، فإن الأرواح الشريرة تحتلّ العقل. وإذا ما نما الشك لدى البوذيساتفا، فإن هذه تكون فرصة طيبة لشيطان الولادة والموت. فاحفظ العقل بعيداً عن الإثارة، وابتعد عن أي توق للخارج.

إذا ما نشأت ظروف فلتكن واضحة. آمن وحسب بـ **الواحد** الحاضر في هذه اللحظة بالذات. والذي لا يوّرط نفسه في أي شكل محدّد خاص.

وحالما تبزغ فكرة في عقلك، يحضر العالم الثلاثي بكل ظروفه التي يمكن تصنيفها في الحقول الحسيّة الستة. وإذا ما مضيت في فعلك مستجيباً لهذه الظروف، فأي نقص فيك؟

إنك لتدخل بلحظة تفكير واحدة إلى النجس كما إلى الطاهر، وإلى **برج ماتيريا**، **وأرض الأعين الثلاثة**. وأينما يممت وجهك، لا تجد سوى أسماء فارغة.

9

يا أتباع **الطريق**! إنه لمن الصعب أن يكون المرء صادقاً حقاً مع نفسه! **والبوذا دهارما** عميقة، وغامضة، ولا يُسبر غورها، ولكن كم هي سهلة ويسيرة حين تُفهم! أنا أصرف كل يوم لأقول للناس ما هي **الدهارما**، لكن المتعلمين غير معنيين أبداً بإعارة أذن صاغية لكلامي. ولقد داسوه بأقدامهم آلاف المرات! ومع ذلك فإنه ما يزال ظلمة حالكة بالنسبة لهم.

إن (**الدهارما**) لا شكل لها كائناً ما يكون هذا الشكل، ومع ذلك فإنها لتتجلى واضحةً في توّحدها! ولأن إيمانهم قاصر، فإنهم يكافحون في محاولة لفهمها عن طريق أسماء وكلمات. لقد ضاع نصف قرن من حياتهم بحمل أجساد لا حياة فيها من باب إلى باب. إنهم يجرون في طول البلاد وعرضها متنكبين حقيبة (ملأى بكلمات فارغة لمعلمين

حمقى). ولسوف يسألهم ياماراجا، سيد العالم السفلي، يوماً ما عن كل خفّ بليَ في أقدامهم.

يا أيها السادة الجليلون، إنّ المتعلمين لا يفهمونني حين أقول لكم: ليس ثمة دهارما ما دمتم تلتمسونها في الخارج. وها هم يلتفتون الآن إلى الداخل ويفتشون عن معناها. فيتربّعون قبالة الجدار، واللسان ملتصق بأعلى الحنك وفي حالة من السكون. وهم يحسبون أن هذا هو التقليد البوذي الذي مارسه البطاركة. لكن ثمة خطأ فادح يتمّ ارتكابه هنا. ليس مطلوباً منك أن تبلغ حالة من الطهارة الساكنة، وهذا ما يميّز (حلكة) الجهل[17] بما لديك من سيادة[18]. وثمة معلم قديم يقول: "هوة السكينة الأشد حلكةً ـ ذلك حقاً ما ينبغي على المرء أن يرتعد خوفاً منه". وهذا هو ما قلته آنفاً. وإذا (من جهة أخرى) ما اعتبرت الحركة هي الشيء الأمثل، فإن العالم كله يعرف ما هي الحركة. ولا يمكن أن نطلق على ذلك اسم التاو. فالحركة من طبع الرياح، أما السكون فمن طبع الأرض. وليس لأي منهما طبع ذاتي.

---

[17] أفيديا، بالسنسكريتية.

[18] السكون، الطهارة والصفاء، أو السكينة، تشير جميعاً إلى حالة وعي تخمد فيها جميع أنواع موجات الفكر، وتُدعى هذه الحالة أيضاً هوّة الجهل أو اللاوعي المظلمة، ومطلوب من الزنّي أن يتحاشاها بكل الوسائل وأن لا يتصور أنها الهدف النهائي لتعاليم زن .

وإذا ما حاولت التقاط (الذات) وهي تتحرك فإنها ستقف في حالة سكون؛ وإذا ما حاولت التقاطها وهي ساكنة، فإنها سوف تتحرك. إنها كالسمكة السابحة حرّةً فوق الأمواج الهادرة في العمق. والحركة وعدمها، أيها السادة الجليلون، وجهان من أوجه (الذات) حين ننظر إليها بصورة موضوعية، في حين أنها ليست سوى رجل ـ الطريق (تاو ـ جين) نفسه الذي لا يستند إلى أي شيء والذي يستعمل (وجهيّ الواقع هذين) بحرية، متحركاً حيناً، وساكناً حيناً آخر.. (ومعظم المتعلمين يقعون في هذه الشبكة ذات الفرعين). ولكن إن كان ثمة رجل يأتي إليَّ، وعليه أن يأتي إليَّ، بنظرة تتعدّى أنماط التفكير المألوفة[19]، فإنني سأتصرف بكل كياني[20].

---

[19] هنالك، عموماً، ثلاث طبقات من الناس: العليا، الوسطى، والدنيا، تبعاً لمواهبهم الطبيعية أو قدراتهم الموروثة في فهم الحقائق البوذية .

[20] بدلاً من "أنا" وتحويراتها، ثمة في الأصل الصيني كلمة شان ـ سينغ (سان ـ زو باليابانية)، وتعني "راهب الجبل"، الذي يشير به رينزاي إلى نفسه. وعلينا ألاّ نفهم أن هذا اللقب المتواضع يشير إلى رينزاي كفرد ينتمي إلى هذا العالم المحدود نسبياً من جميع النواحي وحسب، فهو يشير أيضاً إلى رينزاي بوصفه رجلاً مستنيراً يعيش في مجال متعال من الذاتية أو الفراغ المطلقين. والرجل أو الشخص في هذا المجال لا يتحركُ أو يسلك ككيان فرداني مجزأ، وهو التعريف السيكولوجي للذات، أو كفكرة مجردة، وإنما يتحرك بكل كيانه أو شخصيته، وسوف يتضح ذلك لاحقاً .

أيها السادة الجليلون، هنا يكمن حقاً ذلك الهدف الذي على المتعلمين أن ينكبّوا عليه بكل جوارحهم، إذ ليس ثمة منفذ هنا حتى لمرور نسمة هواء واحدة. وهو مثل ومضة ضوء أو مثل شرارة تصدر عن حكّ الفولاذ بحجر الصوّان. (وما هي إلا طرفة عين) حتى ينتهي كل شيء. فإذا ما حدّقت أعين المتعلمين بثبات أحمق، ضاع كل شيء. وما أن تستخدم عقلك حتى يكون قد فرّ منك؛ وما أن تنبّه الفكر حتى يدير ظهره لك. ومن يفهم سوف يدرك أنه قُدّامه مباشرة[21].

أيها السادة الجليلون، يا من تحملون حقائب الزبادي والجسد الممتلئ قذارة[22]، إنكم تهرعون من باب إلى باب منتظرين أن تجدوا بوذا والدهارما في مكان ما. لكن الواحد الذي يطوف في هذه اللحظة باحثاً عن شيء ما - هل تعرفون من هو بالضبط هذا الواحد؟ هو الأشد دينامية إلا فيما يتعلق بأن لا جذور له، ولا منبت، مهما يكن. وقد تحاولون أن

---

[21] يشير ضمير الغائب هنا إلى الدهارما أو الواقع أو الشخص أو الرجل أو التاو (الطريق).

[22] حقيبة الزبادي هي حقيبة تحوي زبادي للتسوّل يحملها الراهب المتجوّل. أما الجسد المملوء بالقذارة فهو لقب ازدرائي يطلق على الراهب الذي لم تنفتح عيناه بعد على الدهارما والذي عقله ممتلئ بالأسماء الفارغة والأفكار التافهة. وثمة مقارنة هنا بين هذه الأخيرة والمفرزات التي ينبغي اطراحها خارج الجسد. كما أن الراهب العازم على مراكمة أفكار غير قابلة للتحقيق يدعى "حقيبة الرزّ" أو "حقيبة الجلد ذي الرائحة الكريهة".

تمسكوا به، لكنه يأبى أن يجتمع؛ وقد تحاولون أن تصرفوه، لكنه سوف لن يتبدّد. كلما بذلتم مزيداً من الجهد سعياً إليه كلما ازداد عنكم بعداً. وحين تكفّون عن ذلك يكون، ويا للعجب، قُدامكم مباشرة. وصوته المرهف يملأ مسامعكم. أما أولئك الذين لا يؤمنون فإنهم يبددون حاتهم الثمينة بلا طائل.

يا أتباع الطريق، إنه (هو) من يدخل بغمضة عين إلى عالم رحم اللوتس، إلى أرض فايروكانا، إلى أرض الانعتاق، إلى أرض القوى الفائقة للطبيعة، إلى أرض الطهارة، إلى عالم الدهارما. وهو من يدخل الشرير كما يدخل الطاهر، ويدخل العامي والحكيم. وهو أيضاً من يدخل نطاق الحيوانات والأشباح الجائعة، وكائناً ما يكون المكان الذي يدخله، فإننا لا نستطيع اكتشاف أي أثر لولادته وموته، مهما حاولنا أن نحدد موقعه. وما لدينا ليس سوى تلك الأسماء الفارغة؛ وهي مثل عبارات هذيانية منمّقة تُطلق في الهواء. وليست جديرة بكفاحنا للقبض عليها. الكسب والخسارة، والقبول والرفض ـ وكل الثنائيات يجب إسقاطها على الفور...

والطريقة التي أقود بها نفسي، أنا راهب الجبل، سواءً في الإثبات أو في النفي، منسجمة مع (الفهم) الحقيقي، وأنا أدخل كل المواقف بحرية ورهافة ويسر، وأنكبّ على الأشياء كما لو أنني لست مهتماً ومنهمكاً بأي شيء. وكل التغيرات

التي تحصل في ما يحيط بي لا تقوى على التأثير بي. وإذا ما جاءني أحد وهو يفكر بأن ينال مني شيئاً ما، فإنني أخرج وأراه في الحال. وسوف يخفق في التعرّف عليّ. فعندما أضع عليّ أنواعاً عديدة من الثياب، ويبدأ المتعلمون بإطلاق تأويلاتهم، وهم مأسورون بكلماتي وعباراتي دون أن يدركوا ذلك. إنهم لمفتقرون جميعاً لقدرة التمييز! مأخوذين بالملابس التي أرتديها يميّزون ألوانها: أزرق، أصفر، أحمر، أو أبيض. وحين أخلعها وأدخل حالة من اللالون صرفةً، يفاجؤون وتأخذهم الحيرة، ويجرون هنا وهناك قائلين إنني بلا ثياب. وعندها أعود إليهم وأقول: "هل رأيتم الرجل الذي مرّ مرتدياً كل أنواع الثياب؟" فيلتفتون وقد أخذتُهم بغتة ويعرفونني (شكلاً!).

أيها السادة الجليلون، احذروا من أن تعتبروا الثياب (حقائق). فالثياب ليست مهمة بذاتها؛ وإنما الرجل الذي يرتدي العديد من الثياب: ثياب الطهارة، ثياب اللا ولادة، ثياب الاستنارة (بوذي)، ثياب النرفانا، ثياب البطاركة، ثياب البوذية. أيها السادة الجليلون، إنَّ ما لدينا هنا ليس سوى أصوات، وكلمات، وهي ليست بأفضل من الثياب التي نبدّلها. إن الحركات لتبدأ من أجزاء البطن ويمرّ النَفَس من بين الأسنان مُحدثاً مختلف الأصوات. وحين تُنطق فإنها تكون ذات معنى لغوي. وهكذا ندرك أنها ليست حقيقية.

أيها السادة الجليلون، إننا نفكر، ونشعر بواسطة الأصوات والكلمات خارجياً وبتبديل صيغ الوعي داخلياً، وهذه هي كل الثياب التي نكسو بها أنفسنا. فلا تقعوا في خطأ اعتبار الثياب التي يرتديها الناس حقائق. وحين تواصلون على هذا النحو، وحتى بعد انقضاء عدد لا يحصى من الكالبات، فإنّ خبرتكم لن تتعدّى الثياب. وسوف يكون عليكم أن تطوفوا في العالم الثلاثي تديرون عجلة الولادة والموت مرّة بعد مرّة. عَدمٌ يشبه عيش حياة من العطالة والتبطّل، وثمة معلم قديم يقول:

لقد التقيته ومع ذلك فإنني لا أعرفه،
وتحادثت معه ولكنني أجهل اسمه

والسبب في أن متعلمي هذه الأيام عاجزون عن النفاذ إلى الواقع هو أن فهمهم لا يتخطى الأسماء والكلمات. وما يفعلونه لا يعدو أن يكون تدويناً في دفاترهم الثمينة لكلمات معلمين حمقى أصابهم الخرف، وبعد أن يغلّفوها ثلاث مرات، لا بل خمس مرات، يضعونها باحتراس في حقيبة. وذلك كي لا يشاركهم الآخرون في تمحيصهم. وإذ يعتقدون أن كلمات المعلمين هذه تجسّد الفكرة العميقة (**للدهارما**)، فإنهم يكنزونها على هذا النحو بأشد الطرق احتراماً وإجلالاً. فيا لهذه الحماقة وهذا الخطأ الذي يرتكبونه! أيها الأتباع العجائز ذوي البصيرة الواهنة! أية عُصَارة تنتظرونها من عظام كهلة جافة؟ إن ثمة من لا يعرفون الخير من الشرّ.

ينقبّون الكتب المقدسة العديدة، وبعد كثير من التأمل والحساب يقطفون بعض العبارات (التي يستخدمونها من أجل غاياتهم الخاصة). والأمر أشبه برجل ابتلع كتلة من القذارة ثم راح يتقيأها على الآخرين. إن أولئك الذين ينقلون الشائعات، مثل الثرثار، من فم إلى فم سوف يصرفون حياتهم من أجل لا شيء.

وهم يقولون في بعض الأحيان، "نحن رهبان متواضعون"، وحين يسألهم الآخرون عن تعاليم بوذا يصيبهم الخرس ولا ينبسون. عيونهم وكأنها تنظر في الظلمة الداكنة وأفواههم المغلقة تشبه عصا الكتف المنحنية[23]. وحتى حين يظهر ماتيريا في هذا العالم، فإن مصير هؤلاء أن يمضوا إلى عالم آخر؛ مأواهم الجحيم يذوقون فيه أصناف العذاب.

أيها السادة الجليلون، ما الذي تسعون إليه منهمكين في عَدوكم من مكان إلى آخر؟ لن تحصلوا إلا على مزيد من الخداع لأرواحكم. فليس ثمة بوذا تضعون عليه أيديكم (بجهودكم التي تسير في الاتجاه الخاطئ). وليس ثمة تاو (أي بوذي) يمكن بلوغه(بكفاحهم الذي بلا طائل). وليس ثمة دهارما يمكن تحقيقها (بعبثكم التافه). وما دمتم تبحثون

---

[23] عصا خشبية أو في بعض الأحيان من الخيرزان طولها حوالي ستة أقدام تستخدم لحمل الأشياء فوق الكتف. وعندما يكون الحمل ثقيلاً جداً فإن العصا تنحني. ورينزاي يشبّه بشكل ساخر فم الراهب المغلق بالعصا المنحنية على هذا النحو .

في الخارج عن بوذا له شكل (كالعلامات الاثنتين والثلاثين للرجولة)، فلن تتحققوا أبداً من أنه لا يشبهكم (أي لا يشبه ذاتكم الفعلية). وإن كنتم ترغبون بمعرفة ما هو عقلكم الأصلي، فسوف أخبركم أنه ليس متكاملاً ولا مفككاً. أيها السادة الجليلون، ليس لبوذا الحقيقي هيئة، والتاو (أو بوذي) الحقيقي ليس له مادة، كما أن الدهارما الحقيقية ليس لها شكل. وهؤلاء الثلاثة يمتزجون في واحد (الواقع). وتلك العقول التي ما تزال غير قادرة على فهم هذا هي عرضة لمصير مجهول من الوعي بالكارما.

IV - الكـوان

1

الكوان هو نوع من المسألة التي يطرحها المعلم على مريديه طالباً حلّها. إلا أن كلمة "مسألة" problem ليست بالكلمة الملائمة، وأنا أُفضل الكلمة اليابانية الأصلية **كو ـ آن** (وبالصينية **كونغ ـ آن**). **وكو**، حرفياً، تعني "علني" أما **آن** فهي "وثيقة". لكن العبارة "وثيقة عامة" apublic document لا علاقة لها بزن. ذلك أن "وثيقة" زن هي الوثيقة التي يحملها كل منا إلى العالم عند ولادته ويحاول أن يفك مغاليقها قبل أن يموت.

وتبعاً لأسطورة الماهايانا فإن بوذا حين برز من جسد أمه قال: "السماء في الأعلى، والأرض في الأسفل، وأنا وحدي الأكثر شرفاً". وكانت هذه وثيقة بوذا التي انتقلت إلينا لنقرأها، وأولئك الذين يفلحون في قراءتها هم أتباع زن.

وليس ثمة ألغاز في هذا، فكل شيء واضح أو "علني" بالنسبة لكل ذي عين ترى. وإذا ما كان ثمة معنى خفيّ في هذا القول، فإنه من طرفنا وليس من طرف "الوثيقة".

إن الكوان هو في داخلنا، وما يفعله معلم زن يقتصر على الإشارة إليه بحيث تمكننا رؤيته بمزيد من الوضوح. وحين يتمّ إخراج الكوان من اللاوعي إلى حقل الوعي يُقال إنه قد فُهِمَ من قبَلنا. ومن أجل إحداث هذه اليقظة، يأخذ الكوان في بعض الأحيان شكلاً جدلياً ولكنه غالباً ما ينتحل، في الظاهر على الأقل، شكلاً هُرائياً تماماً.

ويمكن أن نصنّف ما يلي بأنه جدلي:

يحمل المعلم في العادة عصاً أو عكازاً يستعملها أثناء ترحاله في الطرق الجبلية. لكنها تحولت هذه الأيام إلى رمز للسلطة قي يد المعلم، الذي غالباً ما يلجأ إليها لتوضيح غرضه. فقد يبرزها أمام الجمع ويقول: "هذه ليست عصا. ماذا تسمونها؟" وقد يقول في أحيان أخرى: "إن كنتم تقولون إنها عصا، "المسوا" (أو أثبتوا)؛ وإن كنتم لا تسمّونها عصا، "عارضوا" (أو انفوا). وإذا ما صرفنا النظر عن كل من النفي والإثبات، فماذا تسمونها؟" والواقع أن هذا الكوان هو أكثر من جدلي. وإليكم واحداً من الحلول التي قدّمها أحد المريدين الأكفّاء: ففي إحدى المرات، وبعد أن طرح المعلم سؤاله هذا خرج راهب من الحشد وتناول العصا من يد المعلم وكسرها ورمى القطعتين على الأرض.

وثمة معلم آخـر أطلـق هـذا القـول المـبهم بينمـا هـو يـبرز عصاه: "حين يكـون لـديك عصـا، سـوف أعطيـك واحـدة؛ وعندما لا يكون لديك عصا سآخذها منك".

وفي بعض الأحيان يسأل المعلـم وبصـورة مشـروعة تمامـاً، "من أين أتيت؟" أو " إلى أين تمضي؟" لكنه قد يتحول فجأة عن هذا الموضوع ويقول: "كم تشـبه يـداي يـدي بـوذا! وكـم تشبه ساقاي ساقيّ الحمار!".

قد يتساءل المرء: "وما الـذي يهـم إن كانـت يـداي مثـل يدي بوذا؟ أما أن تكون ساقاي كساقيّ الحمار، فالأمر يبـدو فاتنازياً، وحتى لو سلمنا بأنها كذلك، فما علاقة ذلك بسؤال الوجود الأساسي، والذي نحن معنيّون به على نحو جدّي؟". إن الأسئلة أو الاختبـارات الـتي يطرحهـا المعلـم هنـا يمكـن اعتبارها "هرائية" إذا أردت أن تصنفها كذلك.

دعوني أقدم عن مثل هذا الهراء مثالاً أو اثنين كـان معلـم آخر قد طلع بهما. فعندما سأل أحد المريدين المعلم: "ما هـو الشـيء الـذي يقـف وحـده، دون شـريك بـين العشـرة آلاف شيء؟" أجـاب المعلـم: "حـين تبتلـع النهـر الغربـي جرعـةً واحدة، سوف أقول لـك". إن ارتكاسـنا المباشـر هـو الصـراخ "مستحيل". بيد أن التاريخ يخبرنا أن تعليق المعلـم هـذا قـد فتح الحجرة المظلمة في وعي المريد الذي طرح السؤال.

وهذا المعلم نفسه هـو الـذي رفـس واحـداً مـن الرهبـان في صدره لأنه أخطأ إذ سأل: "ما معنى مجـيء البـوذي دهارمـا

إلى الصين من الغرب؟" الأمر الذي يكافئ القول: "ما هو المعنى الجوهري للدهارما؟" ولكن عندما نهض الراهب عن الأرض، مستيقظاً من الصدمة، أعلن وهو يضحك بجرأة وحماس: "كم هو غريب أن كل شكل ممكن من أشكال الـ سادهي في العالم هو في قمة شعرة وأنا ضالع بمعناه الخفي حتى أعمق جذوره!". فما العلاقة المحتملة بين رفسة المعلم وإعلان الراهب الجريء؟ هذا ما لا يمكن فهمه أبداً على مستوى التفكير. فعلى الرغم من أن هذا كله قد يكون مجرد هراء، إلا أننا وبسبب من عادة إضفاء المفاهيم conceptualization التي لدينا نُخطئ مواجهة الواقع الجوهري كما يقف بذاته عارياً. إن في ما هو "هرائي" قَدر كبير من المعنى ويتيح لنا اختراق الحجاب الذي يكون موجوداً بقدر ما نقف في هذا الجانب من النسبية.

2

إن هذه "الأسئلة والأجوبة" (والتي تُعرف باليابانية باسم موندو) وأقوال المعلمين التي تُصنَّف الآن بوصفها كوانات، لم تكن معروفة بهذا الاسم أيام وقعت فعلاً؛ ذلك إنها لم

تكن سوى الطريقة الـتي اسـتخدمها البـاحثون عـن الحقيقـة لكـي يسـتنيروا، ولجـأ إليهـا معلمـو زن لمصـلحة الرهبـان المتسائلين. أما مـا يمكـن أن نـدعوه طريقـةً منظمـةً نوعـاً مـا لدراسة زن فقط فقد بدأت مع معلمي السُـنغ sung في وقـت ما من القرن الثاني عشر. وكان أحدهم قـد اختـار مـا عُـرفَ باسم "مو!" جوشيو (وو بالصينية) بمثابة كوان وألقـاه علـى مريديه لكي يتفكّروا به، وتجري قصة جوشيو كما يلي:

كان جوشيو جوشين (778ـ 897)، (تشاو ـ تشوتسـنغ ـ شين بالصينية)، واحداً مـن معلمـي زن الكبـار. وكـان أحـد الرهبان قد سأله مـرةً، "هـل لبـوذا طبيعـة كلـب؟" فأجـاب المعلم: "مو!" "مو!" وو! وتعني حرفياً "لا". ولكنهـا حـين استُخدمت ككوان لم يعد المعنى مهماً، إنها "مـو!" الخـالي من المعنى بصرف النظر عمّا إذا كان يعـني "نعـم" أو "لا" أو أي شيء آخر، في الواقع. فقط "مو!" "مو".

ولسوف يستمر هذا التكرار الرتيب للصوت "مـو!" إلى أن يتشبّع به العقل تماماً ولا يبقى أي مجال لأية فكرة أخـرى. والمـرء الـذي يـتلفّظ بالصـوت، علـى نحـو مسـموع أو غـير مسموع، يتماهى الآن تماماً مع الصـوت، فـلا يعـود شخصـاً فردياً يكرر الـ "مو!" ذاتها وهي تكرر ذاتها. وحين يتحـرك فإنه لا يتحرك كشخص واع لذاته وإنما الـ "مو!" هي الـتي تتحـرك. الـ "مـو!" تقـف أو تجلـس أو تمشـي، تأكـل أو تشرب، تتكلم أو تبقـى صـامتة. ويتلاشـى الفـرد مـن حقـل

الوعي، الذي تشغله الآن الـ "مو!" تماماً. والواقع أن الكون كله ليس سوى الـ "مو!" وحسب. "السماء في الأعلى، والأرض في الأسفل، وأنا وحدي الأكثر شرفاً!" والـ "مو!" هي هذا "الأنا". ويمكن لنا أن نقول الآن إن الـ "مو!" والـ "أنا" واللاوعي الكوني ـ الثلاثة واحد والواحد ثلاثة. وعندما تسود هذه الحالة من التشاكل أو التماهي، يكون الوعي في وضع فريد، أدعوه باسم "اللاوعي الواعي" أو "الوعي اللاواعي".

لكن هذه ليست بعد تجربة الساتوري. ويمكن القول إنها تتماشى مع ما يعرف باسم السمادهي، وتعني "توازن"، أو "تشاكل"، أو "اتزان"، أو "حالة من السكينة". وهذا غير كاف بالنسبة لزن؛ إذ ينبغي أن يكون ثمة يقظة معينة تكسر التوازن وتعيد المرء إلى مستوىً نسبي من الوعي، عندما تتم الساتوري. بيد أن ما يُدعى مستوىً نسبياً من الوعي ليس نسبياً في الواقع؛ أنه الحدّ الفاصل بين المستوى الواعي واللاواعي. وحالما يتم بلوغ هذا المستوى، فإن الوعي العادي للمرء تغمره فيضانات اللاوعي. وهذه هي اللحظة التي يدرك فيها العقل المتناهي أنه متجذر في اللاتناهي. وبتعابير مسيحية، فإن هذه هي اللحظة التي تسمع فيها النفس جهاراً أو سراً صوت الرب الحيّ. وقد يقول اليهود إن

موسى قد كان في هذه الحالة العقلية على طـور سـيناء حـين سمع الرب يعلن اسمه قائلاً "أنا الذي أنا"[1].

3

والسؤال الآن هو كيف اكتشف معلمو السُنغ أن الـ "مـو" هي وسيلة مؤثرة في بلوغ تجربة زن؟" ليس ثمة ما هو فكـري في الـ "مو!". والوضع معاكس تماماً لما حدث حين تمّ تبادل الـ مونـدو بـين المعلمـين والمريـدين قبـل عهـد السُـنغ. وفي الواقع، حيثما يكون ثمة سؤال، فـإن واقعـة التسـاؤل ذاتهـا تنطوي على فَكرَنة intellectualization. "ما هـو بـوذا؟" "ما هي الذات؟" "ما هو المبدأ الجـوهري للتعـاليم البوذيـة؟" "ما معنى الحياة؟" "هل تستحق الحيـاة العـيش؟" كـل هـذه الأسئلة تبـدو بحاجـة إلى جـواب معـيّن "فكـري" أو يدركـه العقل. أما حين يُطلـب مـن هـؤلاء المتسـائلين أن يعـودوا إلى حجراتهم وينكبّوا على دّراسـة الـ "مـو!" فكيـف يمكـن أن يتلقوا الأمر؟ إنهم ببساطة سـوف يُصـعقون ولـن يعرفـوا مـا الذي سيفعلونه بمثل هذا الاقتراح.

---

[1] (أهيه الذي أهيه. وقال هكذا تقول لبني اسرائيل أهيه أرسلني إليكم). (خروج 3: 14) ـ م ـ .

وفي حين أن كل هذا صحيح وصائب، ينبغي أن نتذكر أن موقف زن يقضي بتجاهل كل نوع من أنواع التساؤل، لأن التساؤل ذاته مناقض لروح زن، وما ينتظره زن منا هو أن ننكبّ على المتسائل ذاته كشخص وليس على أي شيء يصدر عنه. ولسوف يوضح مثال أو مثالان هذه النقطة تماماً.

كان باسودو - إيتشي واحداً من أعظم معلمي زن في عهد سلالة التانغ، ويمكن لنا القول إن زن قد بدأ معه. وكانت معاملته للمتسائلين شيئاً ثورياً وأصيلاً إلى أبعد حدّ. كان سويريو (أو سويرو) واحداً من هؤلاء، وهو الذي رفسه المعلم عندما سأله عن حقيقة زن[2]. وفي مناسبة أخرى ضرب باسو راهباً رغب بمعرفة مبدأ البوذية الأول. وفي مناسبة ثالثة تلقّى منه أحدهم لطمة على أذنه لأنه أخطأ إذ سأل المعلم: "ما معنى زيارة **بوذي دهارما** للصين؟" ويبدو، في الظاهر، أن كل هذه التدابير القاسية التي يتخذها باسو لا علاقة لها بالأسئلة المطروحة، اللهم إلا إذا فُهمت بوصفها نوعاً من العقاب الذي يُنزَل بأولئك الذين هم حمقى بما يكفي لأن يطرحوا مثل هذه الأسئلة. والغريب أن الرهبان المعنيين لم يكونوا ليغضبوا أو يغتاظوا على الإطلاق. بل على العكس، فقد غمرت البهجة والإثارة واحداً منهم بحيث أعلن قائلاً: "كم هو غريب أن كل الحقائق التي

---

[2] انظر آنفاً، وكذلك كتابي "الحياة من خلال زن" (لندن، رايدر، 1950)، ص 24 .

تقدمها السوترات[3] متجلّية في رأس شعرة!" فكيف استطاعت رفسة معلم على صدر راهب أن تجترح مثل هذه المعجزة ذات الطبيعة المتعالية؟

لقد اشتُهرَ رينزاي، معلم زن العظيم، بسبب إطلاقه اللفظة غير المفهومة "كاتز!" عند كل سؤال يُطرح عليه. أما تاكو ـ سان، وهو معلم عظيم آخر، فقد اعتاد على استخدام عصاه بحريّة حتى قبل أن يكون الراهب قد فتح فاه. بل إنّ لتاكو ـ سان تعبيره الشهير الذي يجري كما يلي: "ثلاثون ضربة من عصاي حين يكون لديك ما تقوله؛ وثلاثون مثلها حين لا يكون لديك ما تقوله". أما نحن فلن نستطيع الخروج بأي شيء من أفعال المعلم هذه، ما دمنا في مستوى النسبية وقابلية الفهم؛ كما لن نستطيع أن نكتشف أي نوع من العلاقة بين الأسئلة التي يطرحها الرهبان وما يبدو وكأنه انفجار عنيف لشخصية غضوب، فما بالك بأثر هذا الانفجار على المتسائلين؟ إن أقلّ ما نقوله هو: إن تشوش وإبهام الأمر كله يزرع الإرباك والحيرة.

---

[3] السوترا، كلمة سنسكريتية تعني حرفياً "الخيط". ولم يكن فلاسفة الهند الأوائل يميلون إلى تأليف الكتب، ثم ظهرت حاجة ماسة إلى إعداد شروح دينية موجزة تهدي المؤمنين فظهرت خيوط مرشدة هي السوترا، وهي مجموعة من النصوص الموجزة أصبحت هامة وأساسية في البوذية بغض النظر عن استخداماتها الهندوسية. ومن هنا أصبحت كلمة "سوترا" تدلّ على كتب العقائد أو النصوص الشارحة لها في آن معاً ـ م ـ.

4

والحقيقة أن ما يشتمل على كليّة الوجود البشري ليس التفكير وإنما الإرادة بالمعنى المباشر للكلمة. فالفكر قد يطرح كل ضروب الأسئلة ـ ومن حقه تماماً أن يفعل ذلك ـ لكن انتظارنا من الفكر تقديم جواب نهائي يعني أن نطلب منه الكثير، لأن ذلك ليس من طبيعة التفكير. إن الجواب مدفون في أعماق كينونتنا، وإبرازه على السطح يقتضي رعشة الإرادة الأشدّ. وحين يتم الشعور بذلك تنفتح بوابات الإدراك ويكون ثمة مشهد جديد لم نحلم به من قبل. إن الفكر لينوي، لكن من يقرر ويقدّر ليس من ينوي ذاته. وبصرف النظر عمّا يمكن أن نقوله عن الفكر، فإنه في النهاية سطحي، شيء ما طاف على سطح الوعي. ومن أجل الوصول إلى اللاوعي لابد من خرق هذا السطح. ومادام هذا اللاوعي منتمياً إلى ميدان السيكولوجيا، فلا يمكن أن يكون هنالك أي ساتوري بالمعنى الذي لهذه الكلمة في زن. لابد من التعالي على السيكولوجيا وتخطّيها ولا بد من تجاوز ما يمكن أن ندعوه "اللا وعي الأنطولوجي".

لابد من أن يكون معلمو السُنغ قد تحققوا من ذلك خلال تجربتهم الطويلة وتعاملهم مع مريديهم. وهكذا رغبوا في أن

يضعوا حداً للأبوريا[4]. الفكرية من خلال الـ "موا!" الخالية من أي أثر للتفكير والمُفعَمَة بالإرادة المحضة المُلغية للفكر. بيد أن عليّ تذكير قرّائي بألاّ يعتبروني مناهضاً للفكر تماماً. فما أعترض عليه هو اعتبار الفكر بمثابة الواقع الجوهري ذاته. في حين أننا نحتاج الفكر لكي نحدد، ولو بشكل مبهم، أين هو الواقع. لكن فهم الواقع لا يتمّ إلا حين يزيح الفكر عنه مزاعمه. وزن يدرك هذا ويقترح بمثابة كوان قولاً فيه شيء من نكهة الفكر، شيء يبدو بهيئته التنكرية وكأنه بحاجة إلى معالجة منطقية، أو يبدو وكأن هنالك متّسعاً لمثل هذه المعالجة. وسوف توضح الأمثلة التالية ما أعنيه:

يُحكى أن يينو، البطريرك السادس، طلب من سائله قائلاً: "أرني وجهك الأصلي الذي كان لك قبل أن تولد". أما نانجاكو، وهو واحد من مريدي يينو، فقد سأل شخصاً أراد أن يستنير: "من هو الذي يأتي إليّ هكذا؟" وثمة معلم من معلمي السنغ أراد أن يعرف: "أين نلتقي بعد أن تموت، وتُحرق جثتك، ويُذرّ رمادك؟" كما أن هاكوين، وهو معلم عظيم من معلمي زن في اليابان الحديثة، قد اعتاد على رفع إحدى يديه أمام أتباعه طالباً منهم أن يسمعوه صوت يد

---

[4] الأبوريا، أو الإحراج، أو المعضلة، هي في الفلسفة اليونانية مشكلة يصعب حلّها بسبب تناقض في الموضوع أو في التصور الخاص به، وأبوريات زينون مشهورة في هذا الصدد..م..

واحدة وهي تصفق. وثمة في زن كثير من هذه الطلبات المستحيلة: "استخدم الرفش الموجود في يديك الفارغتين". "سر وأنت راكب على حمار". "تكلم دون أن تستخدم لسانك". "اعزف على مزهرك الخالي من الأوتار". أوقف هذا المطر المبلل". ولا شك أن هذه المسائل المنطوية على مفارقات تنيخ بثقلها على فكر المرء وترفعه إلى أعلى درجات التوتر، فتدفعه في النهاية إلى وصفها جميعاً بأنها هرائية تماماً ولا تستحق أن يصرف طاقته الذهنية عليها. بيد أن أحداً لن ينكر عقلانية السؤال التالي الذي حيّر الفلاسفة، والشعراء، والمفكرين من كل صنف منذ بزوغ الوعي البشري: "من أين أتينا وإلى أين نمضي؟". إن كل تلك الأسئلة والأقوال "المستحيلة" التي يطرحها معلمو زن ليست سوى تنويعات "لا منطقية" على السؤال "العقلاني" تماماً الذي أوردناه للتو.

والواقع أنك حين تقدم آراءك المنطقية بشأن كوان ما، فإن من المؤكد أن المعلم سوف يرفضها، صراحةً أو بصورة تهكّمية، دون أن يقدم أساساً لفعله هذا مهما يكن. وبعد بضع لقاءات قد لا تعرف ما عليك فعله سوى التخلي عنه بوصفه "عجوزاً متعصّباً وجاهلاً" أو لأنه "لا يعرف شيئاً عن (الطريقة العقلانية الحديثة) في التفكير". لكن الحقيقة هي أن معلم زن يتقن عمله على نحو أفضل بكثير مما تُقَدّر. ذلك أن زن، في النهاية، ليس لعبة فكرية أو جدلية من أي نوع.

وهو يُعنى بما يتعدّى منطقية الأشياء، حيث يعلم أن هنالك تكمن "الحقيقة التي تحرر الإنسان".

ومهما يكن القول الذي يطلقه المرء بشأن أي موضوع، فإنه يبقى على سطح الوعي بصورة يتعذّر تفاديها ما دام خاضعاً بشكل ما لمعالجة منطقية. فالفكر يخدم أغراضاً متنوعة في حياتنا اليومية، حتى فيما يتعلق بإبادة البشرية، فرادى أو جماعات. ولا شك في أنه مفيد جداً، لكنه لا يحلّ المشكلة الجوهرية التي سيواجهها كل منا في سياق حياته إن عاجلاً أو آجلاً. وهي مشكلة الحياة والموت، التي تُعنى بمعنى الحياة. وحين نواجهها، على الفكر أن يعترف بعدم قدرته على التنطّح لها؛ ذلك أنها تتحول حتماً إلى معضلة أو أبوريا هو عاجز بطبيعته عن حلّها. إن السبيل الفكري المسدود الذي ننساق إليه هو مثل "الحبل الفضي" أو "الجدار الحديدي" الذي ينتصب أمامنا مباشرة. وما نحتاج إليه لإحداث اختراق، ليس المناورة الفكرية أو التحايل المنطقي، وإنما كامل كينونتنا. فالأمر، كما سيقول لنا معلم زن، أشبه بالتسلق على عمود يرتفع مئة قدم وتشعر مع ذلك أنك مدفوع لأن تتسلق وتتسلق إلى أن يكون عليك القيام بقفزة يائسة، مستخفّاً تماماً بأمنك الوجودي. وفي اللحظة التي تقوم فيها بذلك، تجد نفسك آمناً عند "قاعدة زهرة لوتس في أوج تفتّحها". أما التفكير ومنطقية الأشياء فلا يمكن لهما تجريب هذا النوع من القفز. فمنطقية الأشياء لا تؤمن إلا بالاستمرارية

وليس بالقفز فوق الهوّة الفاغرة. وهذا ما ينتظر زن من كلّ منا أن ينجزه على الرغم مما يبدو على السطح من استحالة منطقية. ولهذا فإن زن يدفعنا على الدوام لمواصلة عادتنا في عقلنة الأشياء لكي نرى بأنفسنا إلى أي حدّ يمكن أن نمضي في هذه المحاولة التي لا طائل منها. ذلك أن زن يعلم تماماً أين يقبع حدّها. أما نحن فلا ندرك عموماً هذه الحقيقة إلى أن نجد أنفسنا عند النهاية المسدودة. وثمة حاجة لهذه التجربة الشخصية من أجل إيقاظ كينونتنا بكلّيتها، لأننا عادةً ما نرضى بسهولة إزاء منجزاتنا الفكرية، والتي لا تُعنى، في النهاية، إلى بهوامش الحياة.

إن ما أوصل بوذا في النهاية إلى تجربة الاستنارة لم يكن تدريبه الفلسفي أو تقشّفه الجمالي أو الأخلاقي. فهو لم يبلغها إلا حين تخلّى عن كل هذه الممارسات السطحية المتدلّية على أطراف وجودنا. فالتفكير أو الصياغة الأخلاقية أو المفاهيمية لا حاجة إليها إلا لإدراك حدودها الخاصة. وتمرين الكوان يهدف إلى جعلنا ندرك كل ذلك في الصميم.

وكما قلت من قبل، فإن الإرادة بمعناها المباشر أساسية أكثر من الفكر، لأنها المبدأ الكامن عند جذر الموجودات جميعاً والذي يوحّدها كلها في واحدية الوجود. فالصخور حيث هي ـ تلك إرادتها. والأنهار تجري ـ تلك إرادتها. والنباتات تنمو ـ تلك إرادتها. والطيور تطير ـ تلك إرادتها. وبنو البشر يتكلمون ـ تلك إرادتهم. والفصول تتعاقب،

والسـماء ترسـل مطـراً أو ثلجـاً، والأرض تهتـز في بعـض الأحيان، والأمواج تهدر، والنجوم تسطع ـ كـل منهـا يتبـع إرادته الخاصة. فأن نكون يعني أن نريد وبالتالي أن نصير. ولا يمكن أن يكـون في هـذا العـالم مطلقـاً أي شـيء لا يملـك إرادته الخاصة. والإرادة الواحدة العظيمة التي تنبع منها كل هـذه الإرادات، المتنوعـة إلى مـا لا نهايـة، هـي مـا أدعـوه "**اللاوعي الكوني** (أو الانطولوجي)"، والـذي يشـكّل منطلقـاً لإمكانات لا نهائية. وهكذا تكون الـ "**مو**" مرتبطة باللا وعي مـن خـلال العمـل علـى المسـتوى النزوعـي conative مـن مستويات الوعي. إن الكوان الذي يبدو فكرياً أو جـدلياً، هـو أيضاً يقـود المـرء في النهايـة سـيكولوجياً إلى المركـز النزوعـي للوعي ومن ثم إلى المنبع ذاته.

5

كما قلت من قبل، فإن تلميذ زن، وبعد المكوث مع المعلـم لبضعة سنوات ـ لا بل لبضعة أشهر ـ سوف يصـل إلى حالـة من الجمود التام. ذلك أنه لا يعرف في أي طريق يمضي؛ فقد حاول حلّ الكوان على المستوى النسبي ولكن من غـير طائـل

مهما يكن. وها هو الآن محشور في الزاوية حيث ليس ثمة أي طريق للهرب. وفي هذه اللحظة قد يقول المعلم: "إن من الخير لك أن تكون محشوراً في الزاوية هكذا، فقد آن الأوان لأن تقوم بتغيير كامل". وقد يواصل المعلم قائلاً: "عليك ألاّ تفكر بواسطة الرأس بل بواسطة البطن، بواسطة الجوف".

وقد يبدو هذا غريباً جداً. فتبعاً للعلم الحديث، فإن الرأس مليء بكتل رمادية وبيضاء وبخلايا وألياف متصلة بهذه الطريقة أو تلك. فكيف يمكن لمعلم زن أن يتجاهل هذه الحقيقة وينصحنا بأن نفكر بواسطة البطن؟ بيد أن معلم زن إنسان من نوع غريب. وهو لن يصغي إليك وإلى ما يمكن أن تقوله عن العلوم قديمها وجديدها. إنه يعرف عمله على نحو أفضل من خلال تجربته.

إنَّ لي طريقتي في شرح هذا الوضع، مع أنه قد لا يكون شرحاً علمياً. فمن الممكن تقسيم الجسد من الناحية الوظيفية إلى ثلاثة أقسام: الرأس، والأجزاء البطنية. والأطراف. والأطراف تفيد في التحرك والتنّقل، لكن اليدين تمايزتا وتطورتا في طريق خاص. فهما تُستَخدمان الآن في الأعمال الإبداعية. وتقوم اليدان مع الأصابع العشرة بتشكيل جميع الأشياء المُعدّة لخير الجسد ورفاهه. وثمة حَدس لديّ بأن اليدين قد تطورتا أولاً ومن ثم الرأس، الذي أصبح بالتدريج عضواً مستقلاً للتفكير. ولكي تُستخدم اليدان بهذه الطريقة أو تلك، كان لابد أن تبتعدا عن الأرض، وتتمايزا عن أيدي

الحيوانات الدنيا. وعندما تتحرر اليدان البشريتان من الأرض على هذا النحو، تاركةً للساقين حصراً وظيفة التنقّل، يصبح بمقدورهما اتّباع خط تطورهما الخاص، والذي يفضي بدوره إلى بقاء الرأس منتصباً، ويمكّن العينين من رؤية محيط أوسع وأرحب. إن العين عضو فكري، في حين أن الأذن عضو أكثر بدائية. أما الأنف، فمن الأفضل بالنسبة له أن يبقى بعيداً عن الأرض، ذلك أن العين قد بدأت الآن اضطلاعها بأفق واسع. وهذا التوسيع لحقل الرؤية يعني أن العقل يصبح منفصلاً أكثر فأكثر عن الموضوعات الحسية، جاعلاً من نفسه عضواً للتجريد والتعميم الفكريين.

هكذا يرمز الرأس للتفكير، والعين، بعضلاتها المحرّكة، هي أداته النافعة. أما الجزء البطني الذي يشتمل على الأحشاء فتتم السيطرة عليه بواسطة الأعصاب الإرادية، ويمثّل المرحلة الأكثر بدائية من مراحل التطور في بنية الجسد البشري. فالأجزاء البطنية أقرب إلى الطبيعة التي نأتي منها نحن جميعاً وإليها نعود. ولذا فإن هذه الأجزاء هي في تماس صميمي مع الطبيعة ويمكنها أن تشعر بها وتتكلم معها وتجعلها موضوعاً لـ "التأمل". إن التأمل ليس عملية فكرية، وإنما هو عملية وجدانية عاطفية، إذا جاز التعبير. وكلمة "شعور" هي الكلمة الأفضل عند استخدام هذا المصطلح بمعناه الجوهري.

إن التأمل الفكري هو وظيفة الرأس، ولذا فإن فهم الطبيعة الذي نحصل عليه من هذا المصدر هو تجريد للطبيعة أو تمثيل لها، وليس الطبيعة ذاتها. فالطبيعة لا تتكشف على حقيقتها للفكر ـ أي الرأس. والأجزاء البطنية هي التي تشعر بالطبيعة وتفهمها كما هي. وهذا النوع من الفهم، والذي أدعوه فهماً وجدانياً أو نزوعياً، يشتمل على كيان الشخص بأكمله كما ترمز له الأجزاء البطنية من الجسد. وعندما يقول لنا معلم زن أن نمسك الكوان في البطن، فهو يعني أن كيان المرء بأكمله يجب أن يضطلع بهذا الكوان، أي عليه أن يتماهى معه تماماً، لا أن ينظر إليه فكرياً أو موضوعياً وكأنه شيء يمكننا أن نقف على مسافة منه.

ذات مرة زار عالم أمريكي أحد الشعوب البدائية، وعندما قال لهم إن الغربيين يفكرون برؤوسهم، ظنّ هؤلاء البدائيون أن الأمريكيين جميعاً مجانين. وقالوا: "نحن نفكر بواسطة بطوننا". وعندما تبرز بعض المشاكل العويصة، فإن الناس في الصين واليابان ـ وربما في الهند ـ غالباً ما يقولون: "فكّر بواسطة بطنك"، أو ببساطة، "اسألْ جوفك". ولذا فإن النصيحة، عندما يُطرح أي سؤال متّصل بوجودنا، هي أن "نفكر" بواسطة الجوف ـ وليس بأي جزء منفصل من الجسد. ذلك أن "الجوف" يكافئ كيان المرء بكليته، أما الرأس، والذي هو آخر أقسام الجسد تطوراً، فيمثّل التفكير. والفكر يخدمنا أساساً في مَوضَعَة objectifyng الموضوع

الذي نحن بصـدده. ولـذا فـإن الشـخص المثـالي، في الصـين خاصةً، هو شخص بدين بارز، كما هو واضح في صورة هوتي hotei ـ (بو ـ تاي في الصينية)، والذي يُعتبر تجسيداً لبوذا المنتظر، مايتريا[5].

أن "تفكر بواسطة البطن، فهذا يعني في الواقـع أن تُبقـي الحجاب الحاجز إلى الأسفل، بحيث تفسح مجـالاً للأعضـاء الصدرية كي تقوم بوظيفتها على نحو ملائم، وتبقـي الجسـد مستقراً ومهيئاً جيداً لتلقّي الكوان واستقباله. ولـيس المقصـود من هذا الإجراء جَعلُ الكوان موضوعاً للتفكير؛ ذلك أن الفكر يُبقي موضوعه بعيداً عنه على الدوام، وينظر إليـه مـن بعـد. كما لو أنه خائف حتى الموت من مسّه، فمـا بالـك بالتقاطـه والقبض عليه بين يديه العـاريتين؟ وعلـى العكـس، فـإن زن يريدنا لا أن نلتقط الكوان باليدين، والبطن وحسب، بل وأن نتماهى معه/على النحـو الأتمّ، لدرجـة أنـني حـين آكـل أو أشرب لا أكون أنا، بل الكوان هو من يأكل ويشرب. وحـين يحصل ذلك فإن الكوان يحلّ نفسـه دون أن أقـوم مـن طـرفي بأي شيء آخر.

---

[5] انظر كتابي "موجز بوذية الزن" (لندن رايدر،1950)، لوحة رقم11، مقابل ص 129، حيث يخرج الزنّي المثالي إلى السوق، أي إلى العالم، لينقذ جميع الكائنات.

أنا لا أملك أية معرفة طبية بأهمية الحجاب الحاجز في بنية الجسد البشري، بيد أن فهمي القائم على الحسّ السليم، والمستند إلى خبرات معينة، هو أن الحجاب الحاجز المتصل مع الجزء البطني له علاقة كبيرة مع إحساس المرء بالأمن، الأمر الذي يتأتى من كونه مرتبطاً صميمياً بأساس الأشياء؛ أي بالواقع الجوهري. إن توطيد هذا النوع من العلاقة يدعى باليابانية **كوفو سورو**. وعندما يقول لك معلم زن أن تصل **الكوفو** الخاص بك مع الكوان بواسطة جزئك البطني، فإنه يعني محاولة التوصل إلى توطيد ناجح لهذه العلاقة. ولعل هذه الطريقة في الكلام هي طريقة بدائية أو مناهضة للعلم ـ محاولة توطيد علاقة بين الحجاب الحاجز والبطن والواقع الجوهري. ولكننا، من جهة أخرى، قد أصبحنا بلا شك متعصبين جداً للرأس وأهميته فيما يتعلق بنشاطاتنا الفكرية. وعلى أي حال فإن الكوان لا يمكن أن يُحَلّ بواسطة الرأس؛ أي فكرياً أو فلسفياً. ومهما بدت المقاربة المنطقية مرغوبة أو ممكنة في البداية، فإن من المُقدَّر للكوان أن يستقر في النهاية في الأجزاء البطنية.

لنأخذ مثال العصا في يد المعلم. إنه يرفعها ويعلن: "أنا لا أدعوها عصا فماذا تسمونها؟" وقد يبدو أن هذا السؤال بحاجة إلى جواب جدلي، ذلك أن الإعلان أو الاختبار يكافئ القول: "عندما لا تكون آ هي آ فما هي؟" أو عندما لا يكون الرب هو الرب، فماذا يكون؟" إن قانون الهوية law

of identity المنطقي مُنتهك هنا. فعندما يتم تعريف آ مـرةً بأنها آ، يجب أن تبقى آ وألاّ تكون أبداً غير آ أو ب أو س. وفي بعض الأحيان قد يقول المعلم: " العصا ليست عصا ومـع ذلك فإنها عصا". وعندما يقارب المريـد المعلـم بعقـل منطقـي ويعلن أن الاختبار كله محض هراء، فإنه يكون واثقاً مـن أن العصا ذاتها سوف تهوي عليه. ولا يستطيع المريد الفرار مـن كونه مساقاً إلى طريق مسدود، ذلـك أن المعلـم صـعب المـراس ويرفض بصورة مطلقة أن يخضع لأي قَدر من الضغط الفكري. ومهما يكن **الكوفو** الذي يضطر المريد الآن للقيام به فإنه يـتم برمتّه في أجزائه البطنية ولـيس في رأسـه. ومـن الواجـب أن يفسح الفكر في المجال للإرادة.

إليك مثالاً آخر. لقد طلب البطريرك السادس رؤية "الوجه الذي كان لك قبل ولادتك". إن الجدل بلا طائل هنـا. وهـذا الطلب يشبه قولة المسـيح: "أنـا قبـل إبـراهيم". مهمـا يكـن التأويل التقليـدي الـذي يقدمـه اللاهـوتي المسـيحي لكينونـة المسيح، فإن هذه الكينونة تتحدى إحساسنا البشـري بـالزمن المتعاقب. وهذه هي الحال مـع "وجـه" البطريـرك السـادس. وقد يبذل الفكر كل ما بوسعه، لكن البطريرك وكذلك المسـيح سيرفضان ذلك حتماً بوصفه غير ذي صلة بالموضوع. فـالرأس ينبغـي أن يـنحني للحجـاب الحاجـز وينبغـي أن يـنحني العقـل للـنفس. كمـا ينبغـي أن يُطـاح بكـل مـن المنطـق

والسيكولوجيا، وأن يوضعا أبعد من كل أنواع الفَكرنة intellectualization.

لكي نتابع هذا الكلام المرمّز أقول: الرأس واعٍ أما البطن فلا واع. وعندما يطلب المعلم من مريده أن "يفكر" بواسطة الجزء السفلي من جسده، فإنه يعني وجوب إنزال الكوان إلى الحقل اللا واعي من الوعي وليس إلى حقله الواعي. والكوان هو أن "نغوص" إلى كامل الكينونة وألاّ نتوقف عند المحيط. وهذا، حرفيّاً، ليس له أي معنى، وكأنك لا تقول شيئاً. لكن حين ندرك أن قعر اللا وعي الذي "يغوص" إليه الكوان هو مكان لا يمكن حتى لـ **الألايا ـ فيجنايا**، أي "الوعي المحافظ تماماً"[6]، أن يستغرقه، فإننا سنرى أن الكوان يكفّ عن الوجود في حقل التفكير، إذ يتماهى تماماً مع ذات المرء. وهكذا يتخطى الكوان كل حدود السيكولوجيا.

عندما يتم تجاوز كل هذه الحدود ـ الأمر الذي يعني المضي حتى إلى أبعد مما يدعى اللا وعي الجَمعي ـ فإن المرء يقع على ما يُعرف في البوذية باسم **أدارسانا جنانا**، "معرفة المرآة"، حيث يتم اختراق حلكة اللا وعي فيرى المرء كل الأشياء كما يرى وجهه في المرآة الصقلية الصافية.

---

[6] انظر "اللانكافاتارا سوترا" (لندن، روتليدج، 1932). ص ص38,49,40 إلخ وانظر أيضاً كتابي "مقالات في بوذية زن"، السلسلة 3 (لندن، رايدر، 1951)، ص314.

6

كما قلت من قبل، فإن طريقة الكوان في دراسة زن بـدأت في الصين في القرن الثاني عشر مع معلمي السُنغو مثـل غـوزو هــوين (تــوفي عــام 1104)، ويينغــو كوكوغــون (1063 ــ 1135)، ودايي سـوكو (1089 ـ 1163). لكـن وضـعها في منظومة حصـل في اليابـان بعـد دخـول زن مباشـرة في القـرن الثالث عشر. وكان الكـوان في البدايـة يُصَـنَّف تحـت ثلاثـة عناوين: حَدسي ـ البراجنا (**ريتشـي**)، وفعلـي (**كيكـوان**)، وجوهري (**كوجو**). ولقد عمل هاكوين وأتباعه فيمـا بعـد، في القرن السابع عشر، على زيادتها إلى خمسـة أو سـتة، لكـن الثلاثة القديمة ظلت سارية المفعول من حيث الجـوهر. وبمـا أن الترسيمة قد اكتملـت، فـإن كـل تلاميـذ زن المنـتمين إلى مدرسـة رينـزاي هـذه الأيـام يدرسـون زن تبعـاً لهـا، وقـد تقولبت الدراسة إلى هذا الحدّ أو ذاك لدرجة تبـدي علامـات التدهور والفساد.

إن الأمثلة النمطيـة والكلاسـيكية للكـوان هـي تلـك الـتي تلّقاها التلاميذ من بوكوكوكوشي (1226 ـ 1286) في الصين

ومن هاكوين (1685 ـ 1768) في اليابان[7]. أما مقاربة زن من قبل أولئك الذين ليس لديهم نظام للكوان فيمثلها، بقدر ما نعلم، رينزاي (توفي 867) في الصين وبانكيي (1622ـ1693) في اليابان[8]. أما الباحثون المهتمون بمزيد من الدراسة السيكولوجية لزن فإني أنصحهم بالاطّلاع على بعض أعمالي في هذا الموضوع.

ثمة بضع كلمات أريد أن أضيفها هنا. فعادةً ما تتم ترجمة كلمة **جنانا** إلى "معرفة"، لكن كلمة "حدس" قد تكون أفضل إذا أردنا الدقة. وأنا أترجمها في بعض الأحيان إلى "حكمة متعالية"، خاصةً حين تتصل بالسابقة **برا** على النحو **براجنا**. فالحقيقة هي أن الموضوع، حتى حين يكون

---

[7] انظر كتابي "دراسات في بوذية زن"، السلسلة (لندن، رايدر، 1949)، ص525 ـ 253.

[8] ـ تعتبر "أقوال رينزاي" (بوكو رينزاي)، التي جمعها مريدوه، واحدة من أفضل المجموعات التي تضّم أقوال زن، وتعرف باسم غوروكو، ويُقال أن طبعة السنغ من هذا النصّ والتي ظهرت عام 1120 هي طبعة ثانية مستندة إلى طبعة أقدم مفقودة. انظر كتابي "دراسات في زن" ص25 وما يليها.

وفيما يتعلق ببانكيي انظر كتابي "الحياة بزن"، ص11 ومايليها.ولقد كان بانكيي معادياً بشدة لطريقة الكوان في دراسة زن التي كانت سائدة في أيامه. كما كان معاصراً لهاكوين وأكبر منه سناً، وبقدر ما نعلم فإن هاكوين لم يعرف عنه شيئاً.

لدينا حَدس، يظل أمامنا ونحسّه، أو ندركه حسياً، أو نراه، فثمة انقسام بين الذات والموضع. أما في **البراجنا** فيكّف هذا الانقسام عن الوجود. ذلك أن **البراجنا** غير معنية بالموضوعات المتناهية بما هي متناهية؛ إنها كليّة الأشياء totality of things وقد أضحت واعيةً ذاتها بما هي كذلك. وهذه الكلية ليست محدودة على الإطلاق. والكلية اللا متناهية هي أبعد من نطاق إدراكنا البشري العادي. أما حَدس ـ **البراجنا** فهو ذلك الحَدس الكلياني " وغير القابل للإدراك" باللاّنهاية، وهو شيء لا يمكن أبداً أن يحدث في تجربتنا اليومية المحدودة بالموضوعات والأحداث المتناهية. وهكذا، وبعبارة أخرى، فإن **البراجنا** لا يمكن أن تحصل إلا حين تتماهى موضوعات الحسّ والفكر المتناهية مع اللانهاية ذاتها،. وبدلاً من القول إن اللانهاية ترى ذاتها في ذاتها، فإن من الأقرب إلى تجربتنا البشرية أن نقول إن موضوعاً يُعتبر متناهياً، ومنتمياً إلى العالم المنقسم بين الذات والموضوع، يتمّ إدراكه من قبل **البراجنا** من وجهة نظر اللاتناهي. وإذا ما عبّرنا عن ذلك رمزياً، فإن المتناهي يرى نفسه عندئذ منعكساً في مرآة اللاتناهي. وفي حين يقول لنا الفكر إن الموضوع متناه، فإن **البراجنا** تعارض، معلنةً أنه اللا متناهي خلف حدود النسبية. أما أنطولوجياً، فإن هذا يعني أن كل الموضوعات أو الكائنات المتناهية هي ممكنة لأن اللا نهاية تشكّل أساسها، أو أن الموضوعات منتشرة على

نحو نسبي وبالتالي محدود في حقل اللا تناهي الذي ليس لها من دونه أي مرسى.

ويذكرنا هذا برسالة القديس بولس إلى أهل كورنثوس (الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس 12:13) التي يقول فيها "إننا ننظر الآن في مرآة في لغز لكن حينئذ وجهاً لوجه. الآن أعرف بعض المعرفة لكن حينئذ سأعرف كم عُرفت". إن كلمة "الآن" تشير إلى تعاقب زمني نسبي ومتناه ـ أما كلمة "حينئذ" فتشير إلى الأبدية، والتي هي، بمصطلحاتي، حَدس ـ **البراجنا**. ففي حَدس ـ **البراجنا** أو "المعرفة" أرى الله كما هو في ذاته، وليس "في مرآة في لغز" أو "أعرفه بعض المعرفة"، ذلك لأنني أقف أمامه "وجهاً لوجه" ـ لا بل لأنني مثله.

والأدارساناجنانا التي تتكشّف حين يتم اختراق قعر اللاوعي، أي قعر **الألايا**، **فيجنانا**، ليست سوى حَدس ـ **البراجنا**. والإرادة المباشرة التي تصدر منها جميع الكينونات ليست عمياء ولا واعية؛ إنها تبدو كذلك بسبب جهلنا (**أفيديا**) الذي يجعل المرآة مبهمة، ويدفعنا إلى نسيان حتى حقيقة وجودها. إن العمى هو فينا وليس في الإرادة، التي هي فكرية في مبدئها وجوهرها بقدر ما هي نزوعية وإرادية. فالإرادة هي **البراجنا** مضافاً إليها **الكارونا**. الحكمة والمحبة. أما على المستوى النسبي، المحدود، والمتناهي، فإن الإرادة تُرى وتتكشّف متشظية؛ أي إننا نميل لاعتبارها شيئاً منفصلاً عن نشاطاتنا العقلية. لكنها حين تتكشّف في

مرآة **الأدارساناجنانا**، فإنها تكون "الله كما هـو". والـذي لا تتمايز فيه **البراجنا** عن **الكارونا**. ويكفي أن تـذكر إحـداهما حتى تبرز الثانية حتماً.

لا أستطيع أن أتمالك نفسي عـن إضـافة كلمـة أو اثنـتين هنا. ففي بعض الأحيان يتم الكلام عن علاقة بين ـ شخصية فيما يتعلق بتمرين الكوان عندما يطـرح المعلـم سـؤالاً ويشـرع التلميذ في معالجتـه أمامـه. وإذ يخفـق التلميـذ في معرفـة مـا ينبغي فعله في هذا الموضوع، فإنه يشعر وكأنـه معتمـد تمامـاً على يد المعلم المُسعفة كي تنتشله، وخاصةً حين يقف المعلـم بصرامة وعلى نحو قاطع ضد المقاربة الفكريـة الـتي يحاولهـا التلميذ. هذا النوع من العلاقة بين المعلم والتلميـذ مرفـوض في زن لأنـه لا يفضـي إلى تجربـة الاسـتنارة ولا يسـاعد علـى إحداثها لدى التلميذ. ذلـك أن الكـوان "**مـو**!" والـذي يرمـز للواقع الجوهري ذاته، وليس المعلـم، هـو مـا يـوقظ لا وعـي التلميذ. والكوان "**مو**" هو ما يدفع المعلم لأن يصـرع التلميـذ، الـذي يصـفع المعلـم علـى وجهـه حـين يسـتيقظ. وفي هـذه المواجهة الشبيهة بالمصارعة ليس ثمة **ذات** في طورها المتناهي والمحدود. وإنه لمن الهام جداً أن يكون هذا مفهوماً على نحو غير مغلوط لدى دراسة زن.

٧- المرحل الخمس (غو ـ ئي)

1

لقد أحيل إليّ عدد من الأسئلة [1] ـ أسئلة طرحتها الجلسات الأولى من هذه "الحلقة الدراسية". وبينما كنت

---

[1]

1) ما السبب في أن كتابات زن لا تبدي إلا قليلاً جداً من الاهتمام الواضح بالشروط الثقافية. وتنظيم المجتمع، ورفاه الإنسان؟ مع هذا السؤال ارتبط سؤال آخر عن استخدام زن في إحداث الموت (لكي يجد المرء ذاته جوهرياً)، كما في المسايفة، وسؤال يتعلق بإسهام معلم زن وتلاميذه في مشاكل العصر الاجتماعية؟

2) ما هو موقف زن من الأخلاق؟ ومن الحرمان السياسي والاقتصادي؟ ومن موقع الفرد ومسؤوليته تجاه مجتمعه؟

3) ما الفرق بين الساتوري والهداية المسيحية؟ لقد قلت في أحد كتبك إنهما مختلفان. هل هناك أيّ فرق ما عدا الفروق الثقافية في طرائق الحديث عن هذا الموضوع؟

←

4) الصوفية المسيحية مفعمة بالصور الإيروسية. هل هناك أي أثر لذلك في الساتوراي؟ أو ربما في المراحل السابقة على الساتوراي؟

5) هل لدى زن معيار للتفريق بين التجارب الصوفية الأصلية وتجارب الهلوسة؟

6) ما هو اهتمام زن بتاريخ الفرد، وتأثيرات العائلة، والتربية، والمؤسسات الاجتماعية على تطور اغتراب الفرد عن ذاته؟ فقد اهتم بعضنا بهذا الأمر في علاقته بوضع حدّ للاغتراب لدى الأجيال الجديدة من خلال تحسين تنشئة الفرد، فضلاً عن المؤسسات الاجتماعية. فحين نعرف ما يحدد الصحة السيئة، يُفترض أن يمكننا فعل شيء حيالها قبل أزمة البلوغ.

7) هل يقدم زن أية أفكار فيما يخّص أنواع التجارب التطورية في الطفولة والتي تساعد كثيراً على إحداث الاستنارة في البلوغ؟

8) يبدو أن معلم زن يبدأ مع التلميذ دون انتباه إلى إحساسه بنفسه كما هي عليه، أو على الأقل لا يتفاعل مع هذا صراحةً وبصورة مباشرة. ومع ذلك فإن من الممكن تصوّر أن مثل هذا الرجل قد يدخل زن انطلاقاً من فراغ أو حاجة إلى إيجاد إله جديد ـ الأمر الذي قد لا يكون واعياً له. فهل يساعده على إيجاد سبيله لو كان مطّلعاً على حقيقة أن اتجاهه الخاص سوف يحول التجربة إلى رماد؟

هل يقين معلم زن نوعاً من التواصل بين إحساسه بالشخص وإحساسه بالعقبات التي قد تعترض طريقه؟ حتى لو لم يكن ثمة ميل لفعل ذلك، فهل من الممكن تصور أن القيام بهذا يجعل بلوغ الهدف أسهل؟

9) هل تشعر أن التحليل النفسي، كما تفهمه يوفر للمرضى أملاً بالاستنارة؟

10) ما موقف زن تجاه الصور التي قد تظهر في سياق التأمل؟

11) هل يُعنى زن بإشكالية النضج الانفعالي وتحقيق الذات في الوجود الاجتماعي للإنسان، أي بـ "العلاقات بين الأشخاص"؟

أراجعها، اكتشفتُ أن معظمها يُخطئ النقطة المركزية أو المحورية التي يدور حولها زن. وهذا ما دفعني لأن أكرّس هذا اليوم لقول المزيد حول حياة زن وتعاليمه.

يمكن القول إن زن موضوع غريب يمكن الكتابة والحديث عنه إلى ما لا نهاية، دون أن نستنفذ مكنوناته على الرغم من ذلك. ومن جهة أخرى، وإذا ما رغبنا، فإن بمقدورنا شرحه برفع إصبع أو سعال أو غمزة أو تلفّظ بصوت خال من المعنى.

ولذا قيل إنه حتى لو تحولت كل محيطات الأرض إلى حبر، وكل الجبال إلى فرشاة، وتحول العالم كله إلى صفحات من الورق، وطُلب من أن نكتب في يزن، لما أعطيناه حقه. فلا عجب في أن لساني القصير، والمختلف تماماً عن لسان بوذا، قد أخفق في إفهام زن للناس في المحاضرات الأربع السابقة.

إن العرض الجدولي التالي لـ "المراحل الخمس"، المعروفة باسم **غو ـ ئي**، في تدريب زن سوف يجعل فهمنا لزن أيسر وأسهل. والـ "غو" في **غو ـ ئي** تعني "خمسة" والـ "ئي" تعني "وضع" أو "درجة" أو "خطوة". وتُقسم هذا المراحل الخمس إلى مجموعتين: عقلية، ووجدانية أو نزوعية. فالمراحل الثلاث الأولى هي مراحل عقلية أمّا الاثنتان الأخيرتان فوجدانيتان أو نزوعيتان. والمرحلة الوسطى، الثالثة، هي نقطة الانتقال التي تبدأ عندها المراحل العقلية بالتحول إلى نزوعية وتبدأ المعرفة بالتحول إلى الحياة. وهنا

يصبح الفهم العقليْ لحياة زن ديناميـاً، فيتجسّـد "الكلمـة"، وتتحول الفكـرة المجـردة إلى شـخص حـيّ يشـعر، ويشـاء، ويأمل، ويتوق، ويعاني، ويكون قادراً على إنجاز أي قدر من العمل.

في "المرحلـة" الأولى بـين المـرحلتين الأخيرتـين، يكـافح الزنّي ليحقق نفاذاً إلى قدراته القصوى. وفي "المرحلة" الأخيرة يبلغ غايته، والتي هي في الحقيقة ليست غاية.

وتُقرأ الـ غو ـ ئي باليابانية كما يلي:

1- شو تشوهِن، "الهن في الشو".

2- هِن تشوشو، "الشو في الهن".

3- شوتشو راي، "القدوم من الشو".

4- كِن تشو شي، "الوصول إلى الكِن".

5- كِن تشو تو، "الاستقرار في الكِن".

ويشكّل الشـو والهـن ثنائيـة مثـل الـيين واليـانغ[2] في الفلسفة الصينية. وشو حَرفياً، تعني "قويم"، "مسـتقيم"،

---

[2] اليين واليانغ: طرفان يكمل أحدهما الآخر، حيث يبنى الوجود على إيقاع التعاقب المضطرد لسيطرتهما. واليين هو المنفعل، السلبي، وقوة أنثوية بطيئة الحركة وباردة ورطبة وملغزة، وتتجسد في الظلال والأشياء الكامنة. أما اليانغ فيعني الفاعل، المؤثر، وهو قوة ذكرية تتميز بالحركة والدفء والجفاف واللمعان والإبداع والإيجابية، ويتجسد في الشمس وكل ما هو مشرق ـ م ـ.

"صحيح"، "مستوٍ"؛ وتعني هِن "جزئي"، "أحادي الجانب"، "غير متوازن"، "مائل إلى جانب". وربما كانت المرادفات العربية كما يلي:

الشو	الهِن
المطلق	النسبى
اللا متناهى	المتناهى
الواحد	المتعدد
الله	العالم
الظلام (اللا تمايز)	النور (التمايز)
التماثل	الاختلاف
الفراغ (سُنياتا)	الشكل والمادة (ناماروبا)
الحكمة (براجنا)	المحبة (كارونا)
ري (لى) "الكونى"	جى (شيه) "المتميز"

1) شو تشوهِن "الهِن في الشو". تعني أن الواحد في المتعدد، الله في العالم، اللا متناهي في المتناهي، إلخ. وعندما نفكر، فإن الشو والهِن يقفان متعاكسين متضادين دون إمكانية للتسوية بينهما. لكن الشو لا يمكنه في الحقيقة أن يكون الشو ولا الهِن يمكنه أن يكون الهِن حين يقف كل منهما بذاته. فما يجعل المتعدد (هِن) متعدداً هو وجود الواحد فيه. فإن لم يكن الواحد موجوداً، لا يمكننا الكلام عن التعدد.

2) **هِن تشوشو، "الشو في الهِن"**، متممات(1). فإذا ما كان الواحد في المتعدد، فلابد أن يكون المتعدد في الواحد. فالمتعدد هو ما يجعل الواحد ممكناً. الله هو العالم والعالم هو الله. والله والعالم منفصلان وغير متماهيين، بمعنى أن الله لا يمكن أن يوجد خارج العالم وواحدهما غير مُميّز عن الآخر ومع ذلك فإن كلاً منهما يحتفظ بفرديته: فالله يتجزأ إلى ما لا نهاية وعالم الأجزاء يجد نفسه مُستكِناً وآوياً إلى صدر الله.

3) نأتي الآن إلى المرحلة الثالثة في حياة الزنّي. وهذه هي النقطة الحاسمة إلى أبعد حدّ، حيث تتحول الخاصيّة العقلية في المرحلتين السابقتين إلى خاصية نزوعية ويصبح الزنّي شخصية حية، حساسة، وذات إرادة. فحتى الآن كان هذا الزنّي عبارة عن رأس، أو فكر، مهما يكن المعنى الدقيق الذي نفهم به ذلك. أما الآن فيتزود بجذع مع كل ما يشتمل عليه من أحشاء وكذلك يتزود بالأطراف، وخاصةً الأيدي، التي قد يزداد عددها حتى يصل إلى الألف (الأمر الذي يرمز للا نهاية). وهو يشعر في داخله الآن مثل بوذا الطفل الذي قال، حالما برز من جسد أمه: "السماء في الأعلى، والأرض في الأسفل، وأنا وحدي الأكثر شرفاً".

وبالمناسبة، وحين أورد هذا القول لبوذا، فإن ذوي العقول العلمية قد يبتسمون ويقولون: "يا لهذا الهراء! كيف يمكن لطفل خرج للتوّ من جسد أمه أن يطلق مثل هذا القول الفلسفي العميق؟ هذا لا يصدّق أبداً!" وأنا أعتقد أنهم على

حقّ. لكن علينا أن نتذكر أنه على الرغم من كوننا كائنات عاقلة، فإننا المخلوقات الأبعد عن العقل في الوقت ذاته، ولنا ولعٌ بكل ضروب السخافات المنافية للعقل والتي ندعوها بالمعجزات. ألم يقم المسيح من بين الأموات ويصعد إلى السماء، على الرغم من أننا لا نعلم أيّ ضرب من السماء كانت تلك السماء؟ ألم تقم أمه، مريم العذراء، حتى وهي حية بأعجوبة مشابهة؟ ثمّة ما يقوله لنا العقل، لكن هنالك شيء ما إلى جانب العقل لدى كل منا يهيئنا لتقبّل المعجزات. والواقع أننا نحن أيضاً، أي هذا النوع العادي جداً من البشر، نقوم بمعجزات في كل لحظة من لحظات حياتنا، بصرف النظر عن اختلاف أدياننا.

لقد قال لوثر: " إنني واقف هنا، لا أستطيع فعل شيء آخر". وعندما سئل هياكوجو ما هو الشيء الأروع، أجاب: "إنني جالس وحدي على قمة جبل دايو". وجبل دايو هو المكان الذي يقع فيه دير هياكوجو. وفي الأصل الصيني لا نجد أية إشارة إلى أي شيء أو أي شخص جالس على قمة جبل دايو. وتقتصر الجملة على "وحيداً جالساً جبل دايو". فالجالس غير متميّز عن الجبل. وتوحد الزّني، على الرغم من كونه في عالم الكثرة والتعدد، ملحوظ وبارز.

"إن الرجل الحقيقي بلا عنوان" لدى رينزاي ليس سوى ذلك الذي قُدامنا جميعاً في هذه اللحظة، يصغي بلا ريب

لصوتي وأنا أتكلم أو لكلماتي وأنا أكتب. أليست هذه الواقعة عجيبة جداً نختبرها جميعاً؟ أليست مصدر إحساس الفيلسوف بـ "غموض الكينونة" إن كان يحسّ به حقّاً؟

نحن نتحدث في العادة عن "أنا"، لكن "أنا" هو مجرد ضمير وليس الواقع ذاته. وغالباً ما أشعر برغبة في السؤال: "ما معنى "أنا"؟ وما دام "أنا" هو ضمير مثل "أنت" أو "هو" أو "هي"، فما الذي يقف خلفه؟ هل يمكنك أن تلتقط ذلك وتقول لي "هذا هو"؟ إن السيكولوجي ليخبرنا أن "أنا" غير موجود، أي أنه مجرد مفهوم يعيّن بنية علاقات وتكاملها. لكن الغريب هي أن الـ "أنا" حين يغضب يريد أن يدمّر العالم كله، مع البنية التي يرمز لها ذاتها. فمن أين يَستمِد مفهومٌ مجردٌ دينامياته؟ ما الذي يجعل الـ "أنا" يعلن عن نفسه أنه الشيء الواقعي الوحيد في الوجود؟ فالـ "أنا" لا يستطيع أن يكون مجرد تلميح أو وهم، ولابد أن يكون شيئاً أكثر واقعية ومادية. وهو واقعي ومادي فعلاً، لأنه "هنا" حيث يشكل الشو والهِن وحدة حية للمتناقضات.

إن القوة التي يملكها "أنا" تأتي كلها من هذه الوحدة. وتبعاً للسيد إيكهارت، فإن البرغوث في الله هو أكثر واقعية من الملاك ذاته. أما الـ "أنا" المراوغ والمتملّص فلا يمكن أبداً أن يكون "الأكثر شرفاً".

والشو في شوتشوراي لا تُستخدم بالمعنى ذاته الذي تأخذه في شوتشوهِن أو هِن تشوشو، ويجب أن تُقرأ هنا مع تشو التي تليها، أي تشوشو، وتعني "مباشرة" من وسط شو بوصفها هِن وهِن بوصفها شو".

أما راي فتعني "يأتي" أو يبرز. ولذا فإن التركيب كله، شوتشوراي، يعني "الواحد بوصفه آتياً مباشرة من وسط الشو والهِن في وحدتهما المتناقضة".

وإذا ما أقمنا الصيغ التالية حيث شو هي آ وهِن هي ب، فإن المرحلة الأولى تكون:

آ ← ب

وتكون المرحلة الثانية:

آ ← ب

ومن ثم تكون المرحلة الثالثة:

آ ⇄ ب

وبما أن المرحلة الثالثة تدلّ على نقطة تحول العقلي إلى نزوعي والمنطق إلى شخصية، فإنها تُصاغ على النحو التالي:

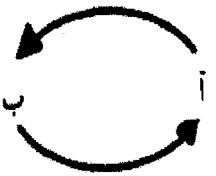

أي إن كل خط مستقيم يتحول إلى حركة منحنية ذات سهم يشير إلى الاتجاه؛ وعلينا أن نتذكر أن السهم المنحني لا يكفي، حيث أن هذه الحركة ليست مجرد شيء ميكانيكي، وإنما هي حركة حية، مبدعة، ولا تنضب. ولعل من الممكن أن نضع الرمز كله في دائرة، ونعتبر أنها تمثل **الدهارماكاكرا**، العجلة الكونية في دورانها الذي لا ينتهي:

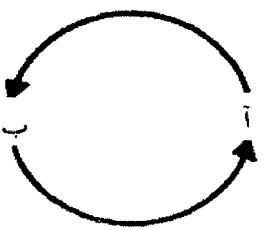

أو نتخذ الرمز الصيني لفلسفة **الين واليانغ** للـ **شوتشوراي**:

إن لـ **راي** في **تشوتشوراي** أهميتها، والحركة موّجهة هنا، وجنباً إلى جنب مع شيء في المرحلة الرابعة، **كِن تشوتشي**، وتعني **راي** "يبرز"، أما **شي** فتعني "في سياق الوصول إلى الغاية"، أو "التحرّك باتجاه الهدف".

وهكذا فإن التجريد المنطقي، **اللوغوس**، يخطو الآن خارجاً من قفصه ويتجسّد، ويتشخصن، ويتجه رأساً إلى عالم من التعقيدات مثل "الأسد ذو الشعر الذهبي".

هذا "الأسد ذو الشعر الذهبي" هو الـ "أنا" الذي هو متناه ولا متناه في الآن ذاته، زائل ودائم، مقيّد وحرّ، مطلق ونسبي. وتذكرني هذه الصورة الحيّة بلوحة مايكل أنجلو الشهيرة "**المسيح في يوم الحساب**"، والموجودة في كنيسة السيستين. لكن "أنا" زن، وبقدر ما يُسفر عن تجلياته الخارجية، ليس مثل المسيح أبداً، ذا طاقة هائلة وآمراً ومستخدماً للقوة. إنه حليم، بعيد عن الفضول والتطفّل، ومفعم بالتواضع.

يتحدث بعض الفلاسفة واللاهوتيون عن "الصمت" الشرقي بالتعارض مع "الكلمة" word الغربية التي أصبحت "جسداً". بيد أنهم لا يفهمون ما يعنيه الشرق حقاً بـ "الصمت"، ذلك أن هذا "الصمت" لا يقف قبالة "الكلمة"، فهو "الكلمة" ذاتها، إنه "الصمت الراعد" وليس الصمت الغاطس إلى أعماق اللا ـ وجود، ولا هو الصمت الغارق في تماثل الموت الأبدي. إن الصمت الشرقي يشبه عين الإعصار[3]؛ إنه مركز العاصفة الهائجة وما من حركة ممكنة بدونه. واستخلاص مركز السكون هذا مما يحيط به يعني أن نفهمه وندمّر معناه. فالعين هي ما يجعل الإعصار ممكناً. والعين والإعصار باتصالهما معاً يشكلان كلاً. فالبطة العائمة بهدوء على سطح البحيرة ينبغي ألاّ تُفصَل عن ساقيها المتحركتين بدأب، على الرغم من أنهما غير مرئيتين، تحت الماء. إنّ الإثنينيين بوجه عام يخطئون الكلّ في كليّته الملموسة المتاسكة.

إن أولئك الذين هم إثنينيون في تفكيرهم ميّالون إلى التأكيد بصورة أحادية الجانب على الوجه المتحرك أو الوجه الجسدي المرئي من أوجه الواقع، ويولونه الأهمية القصوى، متجاهلين كل ما عداه. وعلى سبيل المثال، فإن رقص الباليه هو نتاج غربي على نحو مميّز، وحركة الجسد والأطراف الإيقاعية تتم على نحو رشيق جداً بكل تعقيداتها المتناغمة.

---

[3] منطقة كالثقب في جرف إعصار تتميز بالسكينة الكاملة أو بريح خفيفة ـ م ـ

ولنقارن هذه الحركات مع رقص النو الياباني: فياله من تعارض! فالباليه يكاد أن يكون هو الحركة ذاتها، ، حيث لا تلامس القدمان الأرض إلا بالكاد. فالحركة تتم في الهواء؛ والثبات غائب بصورة واضحة. أما في النو فنرى على الخشبة مشهداً مختلفاً. ذلك أن الممثل يخطو خارجاً من الهاناميتشي إلى حيث يحدّق في الجمهور، وذلك بثبات، ووقار، وكأنه يؤدي شعيرة دينية، مبقياً قدميه بقوة على الأرض ومركز جاذبيته في الأجزاء البطنية من جسده. فيتحرك كما لو أنه لا يتحرك. ويشرح المذهب اللاو - تسي المتعلق بفعل اللا فعل.

وبالمثل فإن الزنّي لا يكون متطفلاً أبداً، وإنما يمحو ذاته على الدوام وهو بعيد كلياً عن الادّعاء والتظاهر. وفي حين يعلن أنه "الأكثر شرفاً"، لا يكون في مظهره الخارجي أي شيء ينمّ عن حياته الداخلية. إنه المتحرك الذي لا يتحرك. ومن هنا ينبثق الـ "أنا" الواقعي حقاً. لا الـ "أنا" الذي يلحّ عليه عادةً كل منا، بل الـ "أنا" المُستكشف ذاته sub specie eternitatis، في خضم اللانهاية. هذا الـ "أنا" هو الأرض الأشد أماناً والتي يمكن لنا جميعاً أن نجدها في دواخلنا وأن نقف عليها دون خوف، ودون إحساس بالقلق، ودون لحظة مزعجة من الحيرة. وهذا الـ "أنا" جدير بالإهمال لدرجة تقترب من اعتباره غير موجود لأنه بعيد تماماً عن التظاهر والادّعاء

الصاخب بأنه مميّز. وهذا ما يفيده إلى أبعد حدود الفائدة. والإثنينيّون يخطئون ذلك؛ فهم يُعلون من شأن راقص الباليه ويضجرون من ممثل النو.

حين كنا نناقش فكرة سوليفان[4] عن القلق، ظهر أن من الممكن للقلق أن يكون على نوعين: قلق عُصابي وآخر وجودي، وأن هذا الأخير أساسي أكثر، بل وأن القلق العصابي يتلاشى من تلقاء ذاته عندما يتلاشى القلق الأساسي. وتأتي كل أشكال القلق من واقعة أن ثمة في مكان ما من وعينا شعوراً بأن معرفتنا بالوضعية التي نحن فيها هي معرفة ناقصة، وهذا النقص في المعرفة يفضي إلى إحساس بانعدام الأمن ومن ثم إلى القلق بكل ما يشتمل عليه من درجات التوتر، والـ "أنا" هو دوماً في مركز أي وضعية يمكن أن نواجهها. ولذا، عندما لا يكون الـ "أنا" معروفاً تماماً، فإن أسئلة وأفكاراً كالتالية تواصل تعذيبنا:

"هل للحياة أي معنى؟"

"هل كل شيء "باطل الأباطيل"[5] حقاً؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل هناك أي أمل يُرجى من أن يحقق المرء ما هو جدير بالتحقق فعلاً؟"

---

[4] هاري ستاك سوليفان: من المحللين النفسانيين الذين يطلق عليهم اسم "الفرويديين الجدد". ركز على وجود روابط بين الطفل وأمه أقدم من عقدة أوديب وروابطها - م -.

[5] إشارة إلى "سفر الجامعة" في التوراة.

"إنني أدور في دوّامة الوقائع البهيمية، وكلها متعيّنة، ومحددة وثابتة على نحو مطلق. أنا يائس، وألعوبة في يد الأقدار. ومع ذلك فإنني أتوق إلى الحرية؛ وأريد أن أكون سيد نفسي. وهذا الأمر ملحّ بصورة أو بأخرى، على الرغم من أنني لا أملك الاختيار. وأنا لا أعرف ماذا أفعل. ولكن أيّ "أنا" هذا الذي يقف خلف هذه الأسئلة المتعبة والمحيّرة؟".

"أين هي إذن تلك الأرض الآمنة التي أستطيع أن أقف عليها دون أي إحساس بالقلق؟ أو ما "أنا"؟ ذلك أنني أعلم أن "أنا" قد يكون هذه الأرض الآمنة ذاتها، أيمكن أن تكون هذه هي الحقيقة التي لم أستطع اكتشافها إلى الآن؟ يجب اكتشاف الـ "أنا" إذاً. وسوف أكون آنئذ على ما يرام"!.

2

لقد أجابت المرحلة الثالثة، **شوتشورا** على كل هذه الأفكار، لكننا حين نأتي إلى المرحلة الرابعة، **كِن تشوشي**، سوف نعرف المزيد عن الـ "أنا" وما تنطوي عليه من فعالية شديدة هي ليست فعالية، مع ذلك. وإنني لآمل أن يصبح هذا مفهوماً حين نصل إلى المرحلة الخامسة والأخيرة، حيث

يبلغ الزنّي غايته النهائية، ونجده هناك جالساً بكل براءة يكسوه الغبار والرماد.

4) فلننتقل مع هذه الملاحظات إلى المرحلة الرابعة. والواقع أن المرحلتين الثالثة والرابعة مرتبطتان صميمياً ولا يمكن تناول إحداهما بمعزل عن الأخرى.

وبمقدار ما يكون الزنيّ ذا عقل منطقي أو فكري، فإنه يبقى واعياً **الشو والهِن** وتحدوه الرغبة بالإشارة إلى وحدتهما المتناقضة. لكنه ما إن يخطو إلى **الكِن تشو تشي** حتى يخرج من عين الإعصار ويغوص في خضم العاصفة. فكل من **الشو والهِن** مطروح للرياح الأربع. والإنسان الآن هو العاصفة ذاتها.

وكِن تعني "كِلا" وتشير إلى ثنائية الأسود والأبيض، والظلام والنور، والحب والكراهية، والخير والشر - والتي هي حقيقة العالم الذي يعيش فيه الزنّي الآن. وبينما لا تزال **شوتشوراي** تذكرنا بشيء ما في المرحلتين السابقتين، فأن **كِن تشوتشي** تخلفهما وراءها؛ ذلك أن الحياة ذاتها، وقد تجردّت من مفارقاتها الفكرية، تضم على نحو مميز، وغير متمايز، أو بصورة أدق على نحو كليّاني، كل ما هو فكري أو وجداني أو نزوعي، فهي العالم كما هو بكل "وقائعه البهيمية"، كما يقول بعض الفلاسفة، والتي تواجهنا بصورة نهائية يتعذّر تغييرها. وها هو الزنّي الآن قد "وضع قدمه" (شي) فيها تماماً. وحياته الفعلية تبدأ هنا. وهذا هو معنى

كِن تشوشي: "لقد بلغ الآن وسط الثنائيات (كِن). وهنا، حقاً، تبدأ فعلاً حياة الحب (كارونا) لدى الزنّي.

لقد كان لجوشو جوشين، وهو واحد من معلمي زن العظماء، ديره الخاص في الجبال وكان مشهوراً بالجسر الحجري الذي وفّرته الطبيعة ليقود إليه. وفي أحد الأيام زار راهب جوشو وقال: "أيها المعلم، إن جسرك الحجري مشهور في الإمبراطورية كلها، لكنه كما أرى ليس سوى جسر خشبي واهن".

فردّ جوشو: "أنت ترى جسرك الواهن وتخفق في رؤية الجسر الحجري الفعلي".

فسأل الراهب: "ما هو الجسر الحجري؟"

وردّ جوشو: "جياد تمر عليه؛ حمير تمرّ عليه".

فجسر جوشو يشبه رمال نهر الغانج، التي تطؤها كل أنواع الحيوان وتلوّثها أشد التلويث، ومع ذلك فإن تلك الرمال لا تشتكي أو تتذمر أبداً. وسوف لن تمحى أبداً آثار الأقدام التي خلّفتها هناك مخلوقات من كل جنس ونوع؛ لكن أقذارها ستغوص حتماً وتعود الرمال نظيفة على الدوام. وهكذا الأمر مع جسر جوشو الحجري: حيث تمر عليه هذه الأيام، لا الجياد والحمير وحسب، بل وجميع أنواع العربات، بما فيها الشاحنات الثقيلة وقوافل السيارات وهو يتسع لها على الدوام. وحتى حين تسيء استعماله فإن رضاه لا يهتز. وزنّي "المرحلة الرابعة" مثل هذا الجسر. ومع أنه لا

يدير خدّه الأيمن حين يُضرب على خده الأيسر، إلا أنه يعمل بصمت من أجل خير ورفاه الآخرين.

ذات مرة سألت امرأة عجوز جوشو: "أنا امرأة، وحياة النساء قاسية جداً. ففي الطفولة تعاني المرأة إذْ عليها طاعة والديها. وحين تكبر بما يكفي تتزوج ويكون عليها أن تطيع زوجها. أما حين تشيخ فيكون عليها أن تطيع أولادها. فلماذا خُلقت لتعيش حياة كهذه دون فترة من الحرية والاستقلال؟ ولماذا لا تكون مثل غيرها من البشر الذين يعيشون دون أي شعور بالمسؤولية؟ إنني أتمرد على أسلوب الحياة الصيني القديم".

وردّ جوشو، (لتكن صلاتك): "فليفعل الآخرون كل ما يحلو لهم. أما أنا فسأقبل بقسمتي".

قد يعترض المرء بأن نصيحة جوشو لا تعدو أن تكون دفاعاً عن حياة تبعية مطلقة، بعيدة كل البعد عن روح الحياة الحديثة. فنصيحته محافظة جداً. وسلبية جداً، وتلغي الذات إلى حد بعيد، وخالية من أي إحساس بالفردية. ألا يُطابق هذا تعاليم **الخسانتي** البوذية، أي السلبية، والعدم؟

إنني لست محامياً عن جوشو. فهو يرد على هذا الاعتراض على النحو التالي:

لقد سأله أحدهم: "أنت شخص طاهر وورع. أين ستجد نفسك بعد وفاتك؟"

فأجاب جوشو الزنّي: "أمضي إلى الجحيم قبلكم جميعاً!"

وصُعق السائل وقال: "كيف يمكن ذلك؟"

ولم يتردد المعلم: "إن لم أذهب أولاً إلى جهنم، فمن سيكون منتظراً هناك لإنقاذ أناس مثلك؟".

هذا قول قوي جداً، لكن جوشو لديه ما يبرر ذلك من وجهة نظره الزنّية. وهو هنا بعيد عن أي دافع أناني. ووجوده مكرّس برمته لخير الآخرين. ولو لم يكن الأمر كذلك، لما استطاع أن يُطلق هذا القول الصريح المباشر دون غموض أو التباس. ويقول المسيح: "أنا الطريق". ويدعو الآخرين لأن يخلّصهم. وروح جوشو هي أيضاً روح المسيح. فليس ثمة روح متغطرسة ومتمركزة على ذاتها لدى أي منهما. إنهما يعبّران عن روح المحبة ذاتها ببساطة، وبراءة، ومن القلب.

ذات مرة سأل أحدهم جوشو: "بوذا هو المستنير ومعلمنا جميعاً. إنه متحرر من الداخل بطبيعته من كل الأهواء (كليسا)، أليس كذلك؟"

فقال جوشو: "لا، إنه الذي يرعى الأعظم من بين الأهواء جميعاً".

"كيف يمكن ذلك؟"

وردّ جوشو: "إن هواه الأعظم هو إنقاذ الكائنات جميعاً!"

ولقد وصف واحد من معلمي زن العظماء في اليابان حياة الزنّي كما يلي: [6]

"إن البوذيساتفا يدير عجلة وحدة المتعارضات أو المتناقضات: الأسود والأبيض، والظلام والنور، والتماثل والاختلاف، الواحد والكثرة، والمتناهي واللا ـ متناهي، الحب والكراهية، الصداقة والعداء، إلخ، إلخ. وبينما هو وسط الغيوم والغبار، متنوعاً إلى ما لا نهاية، يعمل البوذيساتفا ورأسه ووجهه مغطى تماماً بالوحل والرماد. وحيثما تضطرم فوضى الأهواء بعنفها وضراوتها التي لا توصف، فإن البوذيساتفا يعيش حياته بكل تقلّباتها، وكما يعبّر عنها المثل الياباني، "دُر سبع مرات صاعداً وهابطاً، ثم امض مستقيماً ثماني مرات". إنه مثل زهرة لوتس في اللهب، يسطع لونها أكثر فأكثر كلما عبرت معمودية النار.

وإليكم الطريقة التي يصف بها رينزاي رجله "الذي بلا عنوان": **إنه الماكث في البيت ومع ذلك لا يفارق الدرب، وهو الذي في الدرب ومع ذلك لا يغادر البيت. أهو رجل عادي أم حكيم عظيم؟ لا أحد يعلم. حتى الشيطان لا يعرف أين موقعه. بل إن بوذا نفسه ليخفق في تسييره كما يرغب. وحينما نحاول الإشارة إليه، يختفي، ويصبح على الجانب الآخر من الجبل.**

---

[6] لقد قمت بتحديث الصياغة هنا إلى حد ما.

ونجد في **اللوتس سوترا**[7] ما يلي: "ما دامت هنالك نفس واحدة وحيدة لم يتمّ إنقاذها، فإنني عائد إلى هذا العالم لأساعدها". ويقول بوذا في السوترا ذاتها: "لن يدخل البوذيساتفا أبداً في النيرفانا النهائية. بل سيظل بين الكائنات جميعاً (**سارفاساتفا**) يعمل من أجل تهذيبها وتنويرها. ويريها أنه لا ينأى بنفسه عن أي معاناة إذا ما كان ذلك يفضي إلى الخير العام".

ثمة ماهيايانا سوترا تدعى **يوئيما - كير (فيما لاكيرتسوترا)**، والمحاور الأساسي فيها هو مريد عادي لبوذا وفليسوف عظيم. وفي إحدى المرات قيل إنه مريض. وطلب بوذا من أحد تلاميذه أن يذهب ليطمئن عن صحته. فلم يقبل أحد لأن يوئيما كان مُجادلاً لا يُغلَب لدرجة أن أحداً من معاصريه لم يستطع أن يهزمه. لكن مونجو (أو مانجوسري) قبل أن يحمل رسالة بوذا.

عندما سأل مانجو يوئيما عن مرضه، أجاب الأخير، "إنني مريض لأن كل الكائنات مريضة. ولن يشفي مرضي قبل أن تشفى. فهي على الدوام يغزوها الطمع والغضب والحماقة".

---

[7] اللوتس سوترا، أو لوتس القانون الصالح، أهم كتب الماهايانا التي تمت ترجمتها من السنسكريتية إلى الصينية واليابانية، وتعترف به جميع المذهب البوذية - م -.

وهكذا نرى أن الحب والإشفاق هما جوهر البوذية. فهذا النوع من "الأهواء" يبقيها مع الكائنات جميعاً ما دام هنالك واحد منها لم يصل بعد إلى حالة الاستنارة. ويقول المثل الياباني: "إلى عالم الصبر هذا جاؤوا وذهبوا ثمانية آلاف مرة"، وهو يعني بذلك أن كل بوذا وبوذيساتفا سيزور عالمنا هذا عدداً لا نهاية له من المرات، هذا العالم المليء بالآلام التي لا تطاق، وذلك لأن حبهم لا يعرف أية قيود.

إن واحداً من الإسهامات العظيمة التي قدمها الصينيون للبوذية هي فكرتهم عن العمل. ذلك أن أول جهد واع لترسيخ العمل بوصفه وجهاً من أوجه البوذية قد بُذل منذ حوالي ألف عام من قبل هاياكوجو، الذي أسس نظاماً للأديرة الزنّية مميزاً عن المؤسسات البوذية الأخرى. فقبل هايا كوجو كان الرهبان البوذيون مكرسين أساساً للتعلّم، والتأمل، والتقيّد بوصايا الـ فينايا[8]. لكن هايا كوجو لم يَرضَ بذلك، وكان يتوق إلى اتّباع مثال يينو، البريرك السادس، والذي كان مزارعاً في جنوب الصين وكان يكسب قوته من قطع الأخشاب وبيع الحطب. وحين سُمحَ ليينو بالانضمام إلى الأخوية brotherhood، خُصّصَ له الفناء

[8] الفينايا، نظام سلوك الرهبان والراهبات في الدير (في البوذية) - م -.

الخلفي حيث كان يقطع الأرز، ويُعدّ المواد التي تُضرَم بها النار، ويقوم بأعمال وضيعة أخرى.

عندما نظمّ هايا كوجود ديراً جيداً لرهبان زن حصراً، كان العمل قاعدة من قواعده، حيث كان على كل راهب، بما في دلك المعلم نفسه، أن ينهمك في عمل يدوي وضيع من الأعمال، وحتى عندما أصبح هايا كوجو عجوزاً، رفض أن يتخلى عن عمله في الحديقة. وحين أبدى مريدوه قلقهم عليه نظراً لتقدّمه في السن، أخفوا كل عدّة عمله لكي يكفّ عن العمل بالكدّ الذي اعتاد عليه. لكن هيا كوجو أعلن قائلاً: "إن لم أعمل لن آكل".

ولهذا السبب، فإن ما يميّز معابد زن وأديرته في اليابان، وكذلك في الصين، هو أنها تبقى نظيفة وحسنة الترتيب، ورهبانها جاهزون للاضطلاع بأي عمل يدوي، مهما يكن منفّراً وقذراً.

ولعل روح العمل هذه أن تكون مغروسة بعمق في عقول الصينيين منذ القدم، ذلك أن مُزارع تشوانغ ـ تسي، وكما أشرت في الفصل الأول، رفض استعمال الشادوف ولم يكن يهمّه القيام بأي قدر من العمل لأنه كان يحب ذلك. وهذا لا ينسجم مع الفكرة الغربية، والحديثة في الحقيقة، عن وسائل توفير الجهد من كل صنف.

عندما يوفر بشر هذه الأيام الجهد ويكسبون مزيداً من الوقت لملّذاتهم أو غير ذلك من الاهتمامات، فإنهم

يبدؤون بإطلاق كل ضروب التذمر والشكوى التي تعبّر عن عدم رضاهم عن الحياة، أو باختراع أسلحة يمكن بها قتل الآلاف من الكائنات البشرية بكبسة زرّ. واسمع ما يقولون: "هذه هي الطريقة التي تهيئ للسلام". أليس مدهشاً حقاً أن الشرور الكامنة في الطبيعة البشرية وفكريتها intellectuality مطلقة العنان تُجهد نفسها في اكتشاف أسهل الطرق وأسرعها لإفناء ذاتها عن سطح البسيطة؟ عندما رفض مُزارع تشوانغ ـ تسي أن يكون ذا عقلية آلية، هل كان يتنبأ بكل هذه الشرور بعد واحد وعشرين أو اثنين وعشرين قرناً من الزمن؟ يقول كونفوشيوس: "حين يجد صغار الناس مزيداً من الوقت في أيديهم فلابد أن يخترعوا كل ضروب الأشياء الشريرة".

قبل أن أختم كلامي، دعوني أقدم لكم ما يمكن أن نسميه الفضائل الرئيسية لدى البوذي ساتفا أو الزّني. وهي تُعرف باسم **البارامتياس** الستة:

I- **دانا** (الإحسان)

II- **سيلا** (الوصايا الأخلاقية)

III- **كسانتي** (التواضع)

IV- **فيريا** (الطاقة)

V- **دهيانا** (التأمل)

VI- **براجنا** (الحكمة)

I- الإحسان، أو العطاء، هو أن يقدم المرء لمنفعة ورفاه كل الكائنات (**سارفاساتفا**) أي شيء وكل شيء يمكنه تقديمه: لا الأشياء المادية وحسب، بل المعرفة، سواء الدنيوية أو الدينية أو الروحية (فالمعرفة تنتمي إلى **الدهارما**. الحقيقة الجوهرية). وكل بوذي ساتفا مستعد حتى لأن يهب حياته من أجل إنقاذ الآخرين. (وثمة قصص فانتازية عن ذلك في **حكايات جاتاكا**).

يقدم لنا تاريخ البوذية اليابانية مثالاً رائعاً عن التضحية بالنفس من قبل أحد معلمي زن. ففي الفترة السياسية المعروفة باسم **عهد الاقتتال** warring era في القرن السادس عشر كانت اليابان ممزّقة إلى عدد من المقاطعات المحكومة من قبل زعماء متحاربين. وكان أودانوبوناغا هو الأقوى بينهم. وعندما هزم عائلة تاكيدا المجاورة، لجأ واحد من أفراد هذه العائلة إلى أحد أديرة وزن، وطلب جيش أودا تسليمه لهم، لكن رئيس الدير رفض قائلاً: "إنه الآن في حمايتي، وبصفتي تابعاً لبوذا فإنني لا أستطيع أن أسلمه". وهدّد القائد المُحاصر بأن يحرق الدير كله بمن فيه. ونظراً لإصرار رئيس الدير على موقفه، فقد أُضرمت النار في المبنى المؤلّف من طبقات عدّة. واضطر رئيس الدير، مع قلّة من الرهبان الذين أرادوا الانضمام إليه، إلى الصعود إلى الطابق الثاني، حيث جلسوا جميعاً بسيقان متصالبة. وقال رئيس الدير لأتباعه أن يستعدوا للّحظة أخيرة، طالباً منهم أن

يعبّروا عن أية فكرة تخطر لهم في هذه المناسبة. وهكذا قدّم كلٌّ منهم ما لديه. وعندما جاء دور رئيس الدير تلا الأبيات التالية بهدوء، ثم احترق حيّاً مع البقية:

كي تمارس الـ دهيانا (التأمل) بسلام.
ليس ضرورياً أن تمضي إلى المُعتَزَل الجبلي.
إذا ما طهّرت العقل من الأهواء
حتى النار ستصبح برداً وسلاماً.

II- سيلا، هي التقيّد بالوصايا التي أوصاها بوذا والتي تفضي إلى حياة أخلاقية. وفي حالة من لا بيوت لهم، فإن المقصود من الوصايا هو تحديد نظام الأخوية (**سانغها**). **والسانغها** هو مجتمع نموذجي مثله الأعلى هو عيش حياة سلام وانسجام.

III- كسانتي، من المفهوم عموماً أنها تعني "الصبر"، لكنها في الواقع تعني الخضوع لأفعال مُذلّة بصبر، أو برباطة جأش. أو كما يقول كونفوشيوس: "الرجل المتفوق لن يرعى أي شعور فاسد حتى حين لا يقدّر الآخرون عمله أو فضيلته". ولا يشعر أي من أتباع بوذا بالإذلال إنْ لم يُعجَب بهم الآخرون، أو حتى حين يتمّ تجاهلهم دون وجه حقّ. إنهم يتحملون بصبر كل الشروط السيئة.

IV- فيريا: تعني في الأصل "الرجولة". وهي تعني أن تكون مخلصاً على الدوام وذا قدرة على تنفيذ كل ما ينسجم مع **الدهارما**.

V- دهيانا: هي الاحتفاظ بحالة عقلية هادئة وساكنة في كل الظروف، المواتية وغير المواتية، وتجنّب الاضطراب أو الإحباط حتى حين تتتالى الأوضاع السيئة واحداً إثر آخر. ويتطلّب ذلك قدراً كبيراً من التدريب والمران.

VI- براجنا: ليس ثمة كلمة انكليزية، أو حتى أوروبية، مرادفة لها، ذلك أن الأوروبيين ليس لديهم أية تجربة تكافئ **البراجنا** نوعياً. فالـ **براجنا** هي التجربة التي يحوذها المرء حين يشعر بكليّة الأشياء اللا متناهية بحسه الأشد جوهرية، أي، بعبارة سيكولوجية، حين يرجع الأنا المتناهي، مخترقاً قشرته الصلبة، إلى اللا متناهي الذي يشتمل على كل ما هو متناه ومحدود وزائل بالتالي. ويمكن أن نعتبر أنَّ هذه التجربة قريبة نوعاً ما من حَدس كلياني بشيء يتعالى على كل تجاربنا الخاصة، والمحددة.

3

5- نصل الآن إلى المرحلة الأخيرة، **كِن تشوتو** والفارق بين هذه المرحلة والمرحلة الرابعة هو استخدام **تو** بدلاً من **شي**. والواقع أن **شي** و**تو** تعنيان الفعل ذاته، "يبلغ"،

"يصل". لكن فعل الوصول، تبعاً للتأويل التقليدي، لا يكون مكتملاً في شي، والمسافر ما يزال في الطريق إلى الهدف، في حين تشير تو إلى اكتمال الفعل. والزنّي هنا يحقق غرضه، ذلك أنه يكون قد وصل إلى غايته. وهو يعمل بكدّ على الدوام؛ ويمكث في هذا العالم بين الكائنات المماثلة له. وتبقى نشاطاته اليومية ذاتها دون تغيّر؛ لكن ما تغيّر هو ذاتيته. وعن ذلك يقول هاكوين، مؤسس زن رينزاي الحديث في اليابان:

بعون من ذلك الحكيم ـ الأبله
فلنعملْ معاً لنملأ
البئر بالثلج.

وفي النهاية، فإن ما يمكن أن نقوله هنا عن حياة الزنّي ليس كثيراً، ذلك أن سلوكه الخارجي ليس مهماً كثيراً؛ فهو منكب تماماً على حياته الداخلية. وتراه بأسمال بالية يعمل بكدّ عامل حقير. وكثيراً ما وُجدَ زنيّون متخفّين بين المتسولين، في اليابان الإقطاعية. وثمة حالة واحدة على الأقل من هذا النوع. وحين مات هذا الرجل، فُحصت زبدية الرز التي كان يطوف بها متسولاً طعامه ووجد عليها نقش بالصينية الكلاسيكية يعبّر عن نظرته إلى الحياة وفهمه لزن. والواقع أن بانكئي، معلم زن العظيم، نفسه كان مرةً في رفقة

المتسولين قبل أن يتم اكتشافه ويقبل تعليم أحد الأسياد الإقطاعيين في أيامه.

وقبل الختام، سأورد واحداً أو اثنين من **الموندو** المميزة لزن وآمل أن يلقيا بعض الضوء على التوصيفات السابقة لحياة الزنّي. ولعل واحدة من الوقائع البارزة في هذه الحياة هي أن فكرة الحب كما يفهمها البوذيون تفتقر إلى السمات الإيروسية الواضحة التي نلحظها بقوة لدى بعض قديسي المسيحية. فحبّهم موجّه نحو المسيح بطريقة خاصة جداً، في حين أن لا علاقة تقريباً للبوذيين ببوذا، بل بالكائنات المماثلة لهم، سواء الحسّاسة منها أو غير الحسّاسة. وحبهم يتجلّى في صورة عمل خال من الشكوى وفيه تضحية بالنفس من أجل الآخرين، كما رأينا آنفاً.

كان ثمة امرأة عجوز تدير صالة للشاي أسفل جبل تايزان، حيث يقع دير لزن مشهور في الصين كلها. وكلما كان راهب مسافر يسألها عن الطريق إلى تايزان، كانت تقول: "سر قُدماً". وحين كان الراهب يتبع هذا الاتجاه. كانت تعلّق: "وهذا واحد آخر يمضي في الطريق ذاته". ولم يكن رهبان زن يعلمون ما يعنيه تعليقها.

وبلغ الأمر مسامع جوشو فقال: "حَسَنٌ، سأذهب لأرى أي نوع من النساء هي هذه المرأة". وانطلق جوشو، وحين وصل إلى صالة الشاي سأل السيدة العجوز عن الدرب المؤدي إلى تايزان. وبالطبع فقد قالت له أن يمضي قُدُماً، وفعل

جوشو كما فعل الكثير من الرهبان قبله. وعلّقت المرأة قائلة: "راهب ممتاز، يمضي في الطريق ذاته مثل البقية". وحين عاد جوشو إلى الأخوية، قال: "لقد اكتشفت هذه المرأة اليوم بكل ما في الكلمة من معنى!".

قد نتساءل: "ما الذي اكتشفه المعلم في المرأة ما دام سلوكه لم يكن مختلفاً أبداً عن سلوك بقية الرهبان؟" هذا هو السؤال الذي يجب على كلّ منا أن يحلّه بطريقته الخاصة.

سوف أوجز الآن ما يقترح علينا زن القيام به: إنه التماس الاستنارة لأنفسنا ومساعدة الآخرين على بلوغها. وثمة لدى زن ما يمكن أن نطلق عليه اسم "صلوات"، على الرغم من أنها تختلف تماماً عن الصلوات المسيحية. وسوف أذكر أربعاً منها، مع أن الأخيرتين هما بمثابة تضخيم للأولى والثانية:

I- مهما يكن عدد الكائنات كلها، فإنني أتضرع (أصلي) من أجل أن يتمّ إنقاذها جميعاً.

II- مهما تكن الأهواء لا تنضب، فإنني أتضرّع من أجل أن يتمّ اجتثاثها جميعاً.

III- مهما تكن **الدهارما** متباينة بما لا يُقاس، فأنني أتضرّع من أجل أن تتمّ دراستها جميعاً.

IV- مهما يكن **طريق ـ بوذا** رفيعاً وفائقاً، فإنني أتضرّع من أجل أن يتم بلوغه كاملاً.

وقد يبدو زن في بعض الأحيان غامضاً جداً، وملغّزاً، ومفعماً بالتناقضات، لكنه في النهاية مذهب ونظام بسيط:

عَملُ الخير
وتجنّب الشر،
وتنقية القلب
ذلك هو طريق - بوذا.

أفلا ينطبق هذا على الأوضاع البشرية كلها، حديثها وقديمها، في الغرب أو في الشرق؟

يقدّم المؤلف في هذا الكتاب عرضاً عميقاً وشيّقاً للفروق بين الفكر الشرقي والغربي، واضعاً العقلانية والمادية الغربيتين مقابل مفهوم الشرقي للتسليم، كأساس لـ "الإنسان الكامل".

ولقد عاش د. ت. سوزوكي بين عامي 1869 ـ 1960. وكان أستاذ الفلسفة البوذية في جامعة "أوتاني" في "كيوتر". ولعله أكبر مرجع في الفلسفة البوذية. وقد تجاوزت مؤلفاته فيها، بالإنجليزية، اثني عشر كتاباً، فضلاً عما كتبه باليابانية. ولا تقوم كتابة سوزوكي فقط على معرفته بالسنسكريتية والباليّة (لغة الأسفار المقدسة البوذية) والصينية واليابانية، بل أيضاً على معرفته بالثقافة الغربية المعاصرة وباللغات الألمانية والفرنسية والانجليزية.

أما الصوفية التي يشتغل عليها هذا الكتاب، والتي مضت من الصين إلى اليابان لتصبح صوفية البوذي الياباني، فهي تتقاطع جوهرياً مع التصوف الإسلامي والمسيحي، ومع التصوف العربي الإسلامي والمسيحي الغربي.

والبوذية إذ تضع المعرفة الحدسية في المقام الأول، ومن دون أن تلغي المعرفة العقلية، فإنها التجربة التي قامت على أساسها النهضة اليابانية الصناعية الجبارة. وأياً تكن تلك الأسس فهي قابلة للحوار. ولأن الآخر في أقصى الشرق بنى ويبني ثقافة تتراح عن مبادئ الآخر الغربي، فإن ترجمة تلك الثقافة إلى العربية ضرورة ملحة، ليس من أجل التقليد أو التبني أو الرفض أو التسلية، بل من أجل حوار التجارب جميعاً، والمساهمة بالتالي في السؤال / التحدي والأساس: سؤال / الهوية والانتماء.

تصميم الغلاف: ناظم حمدان

دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ اللاذقية ـ ص. ب 1018 هاتف 422339